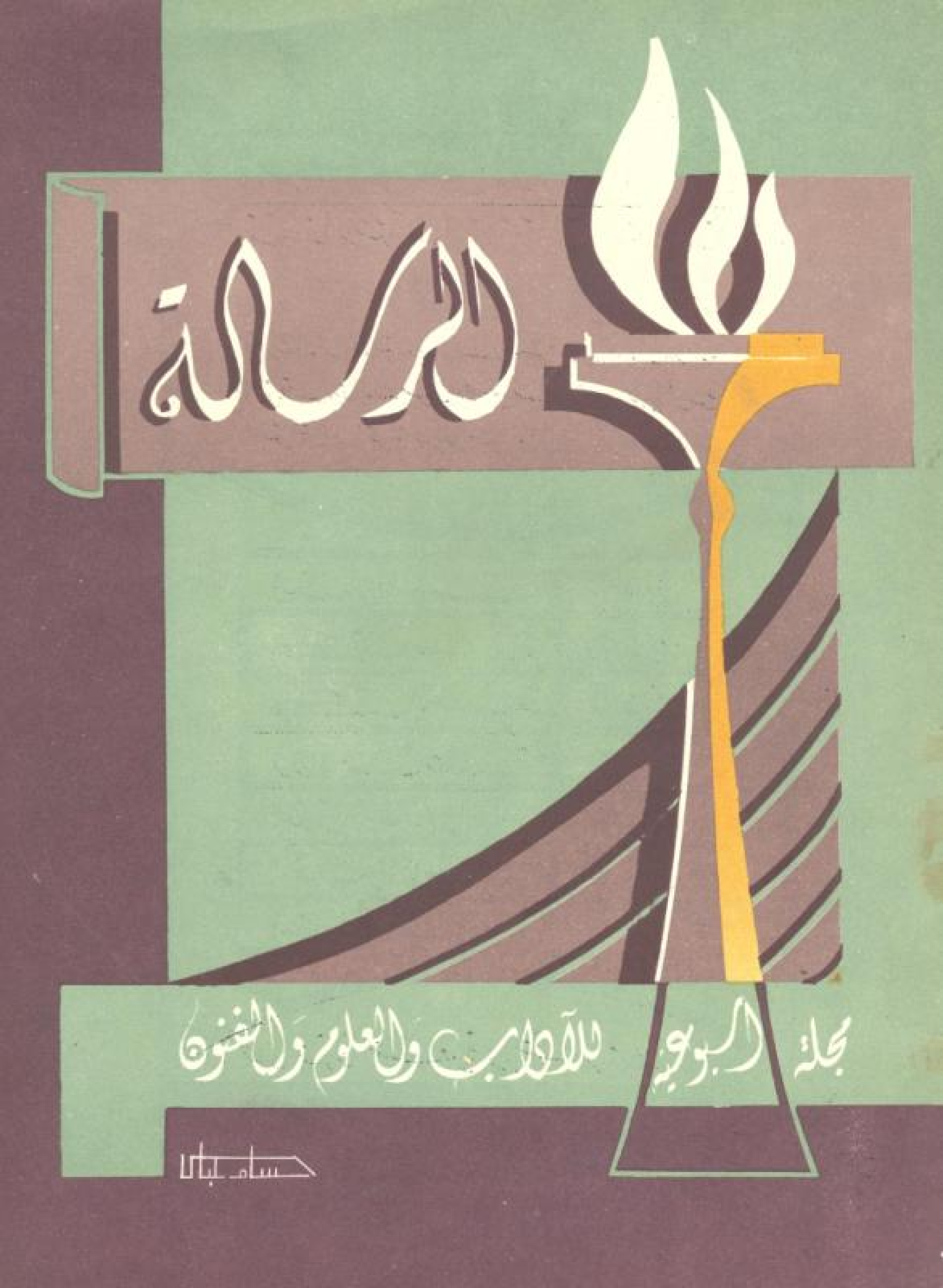

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
تصدرها
الثقافة والإرشاد القومي

الرسالة

تليفون ٥٣٩٤٠
٤٢٧٩٤

في هذا العدد

الاشتراكات :
١٥٠ قرشاً سنوياً
يضاف أجر بريد من خارج ج.ع.م.
الإدارة :
٢٧ شارع عبد الخالق ثروت
بريد : محمد فريد - القاهرة .

العدد ١١٢٠ - الخميس غرة ربيع الأول ١٣٨٥ هـ - أول يوليو ١٩٦٥ السنة الثانية والعشرون

ثم .. ليس الطريق هنالك

بقلم : محمود محمد شاكر

- ٢٣ -

اللغة هي أداة التفكير ، واداة البيان • لايكاد احد يرتاب في أن هذا حق ، وانه واضح شديد الوضوح • ومن اجل انه حق تتلقاه بديهة العقل بالتسليم ، ومن اجل انه واضح ، تستشعر النفوس أنه معنى سهل يسير قريب • بيد ان المتأمل يقف حائرا يتلدد (أى يتلفت يمينا وشمالا من حيرته وتبلده) ، لأن هذه القضية على سلامتها ووضوحها ، تنتهي الى نتيجة معقدة أشد التعقيد • وذلك أن اللغة الفاظ • وهذه الالفاظ مركبة في جمل ، ومن الالفاظ والجمل ، يخرج المعنى • والنظرة الاولى توجب أن يكون «**اللفظ**» محدود المعنى المفرد ، وأن يكون التركيب محدود الوجوه الدالة التي تفضى الى استحداث المعنى المركب الذى يراد ابلاغه السامعين أو القارئين • ولكن ، هل هذا صحيح ؟ أصحيح أن «**الفاظ اللغة**» محدودة المعاني حدا قاطعا واضحا في كل لسان ، وفي كل زمن من ازمنة هذا اللسان ؟ أو صحيح أيضا أن « **تركيب الفاظ اللغة** » أى الجمل وأساليبها المختلفة ، محددة هي الاخرى تحديدا قاطعا واضحا في كل لسان ، وفي كل زمن من أزمنة هذا اللسان » ان أقل التأمل يهدى الى بطلان هذه النظرة الأولى بطلانا يفضى أحيانا الى اليأس من قدرة اللغات على الابانة ، والى الشك كل الشك في القضية التي سلمت بها بديهة العقل ، واستشعرت يسرها وسهولتها سرائر النفوس • ومعنى ذلك أن ادعاءنا أن اللغة هي أداة التفكير وأداة البيان ، قضية غامضة ، قضية موهمة ، قضية اذا امتحنتها وجدتها غير مطابقة للواقع •

والناس منذ كانوا لا يزالون يختلفون على معاني الالفاظ ، يختلفون عليها وهم يستعملونها ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم ، ويختلفون أيضا على الجمل المركبة من هذه الالفاظ ، وهي تجرى مركبة على ألسنتهم في حال بعد حال وفي حديث بعد حديث • ولم يمنعهم اختلافهم على معاني الالفاظ ودلالات الجمل من الامرين جميعا : من أن يفكروا باللغة التي لا تستقر حدود الفاظها ولا حدود جملها ، ولا من الابانة بهذه اللغة التي لا تستقر حدود الفاظها ولا حدود جملها • بل لم يمنعهم هذا الاختلاف أيضا من التفاهم بهذه اللغة التي لا تستقر حدود الفاظها ولا حدود جملها • وهذا أمر معقد أشد التعقيد ، يحتاج بيانه والفصل فيه الى ابحاث قائمة برأسها ، قد تكلم فيها الناس قديما وحديثا ، فأصابوا وأخطأوا وبينوا غامضا ، وزادوا البين منها غموضا •

ولست بصدد البحث في هذا الشأن • ولكني قدمت القول فيه ، ليكون جليا أن «الألفاظ» ، لها خطر شديد ، لأن البداهة توجب أن يكون «اللفظ» الذى نستعمله محدودا ، فربما وقع المرء تحت سلطان هذه البداهة ، فلم يلق بالا الى هذا الأمر المعقد الذى يفضى اليه الواقع الذى تعيشه اللغات • فيستعمل « اللفظ » ، أو يقرأه ، ثم يفكر فيه تفكيرا متسما بالقصور عن ادراك هذه الحقيقة المفزعة ، وهي حقيقة « الاختلاف » التي حدثت في جميع الألسنة ، وفي جميع الأزمنة • ونعم ، ان الناس قد خرجوا من هذا المأزق المحيط بالتفكير والبيان ، بمحاولات جمة قاسية عنيفة ، خاض العقل الانساني غمراتها ، ليحمى وجوده من اليأس والشك ، أى من العوامل المتفجرة في كيانه ، المؤدية الى تدمير ماجعله الله سببا مميزا بين الانسان النامى وبين سائر الموجودات : من حى نام ، ومن حى غير نام ، أى من حيوان أعجم ، وجماد مصمت : وهذا السبب المميز بين الانسان النامى ، وبين سائر الموجودات نامية وغير نامية ، هو «البيان»

وهذا هو الذى بينه الله تعالى فى محكم تنزيله ، حيث من على عباده باعظم آلائه ونعمه فقال : « **الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيـــان** » ، فلولا « البيان » ، لكان الانسان خلقا غير هذا الخلق ، ولولا قدرته على اجتياز محنة « البيان » ، أى محنة اللغة التى لا تكاد تستقر حدود ألفاظها ، ولا حدود جملها ، لوقع فى دمار اليأس من اللغة وقدرتها على الابانة عن نفسه ، ولهوى فى هوة الشك فى هذه الأداة ، وفى نفعها لما يريده من الابانة عن معانيه •

ومن البين ، وأنا فى شك من أنه بين لكل احد ولكن هكذا نقول ! من البين أن الأمر لم يكن كذلك فى أولية الانسان منذ القدم البعيد • فالنظر يوجب أن يكون أول « البيان » ، أى أول اللغة التى يبين بها الناس عما فى أنفسهم ، مضبوطا صحيح الحدود ظاهرها ، لا يكاد يكون فيهـــا اختلاف يذكـر ، ثم يتوارث اللغة جيل بعد جيل ، يستخدمها لمعان متجددة بتجدد ادراك النفس المبينة لأسرار ما يحيط بها يوما بعد يوم ، فتحملها ارادة البيان عن جديد ما انفتح لها ، على أن تتخير «لفظا» تركبه فى جملة لتمنح هذا اللفظ طرفا من المعنى الجديد ، يلحق معناه الاول ، ويزيد فيه مالم يكن ، ثم يمضى « اللفظ » فى اللغة مركبا ، حتى ينفصل عن التركيب الذى أحدث له معنى لم يكن فيه ، ثم يستـــقل بعد حاملا معنى زائدا ، مركبا من المعنى الأول ، والمعنى الجـديد • وهذا أشبه شىء بما نسميه فى العربية « المجاز » ، أى اجتياز معنى حادث الى معنى قديم فى اللفظ ، وتكثر المعانى الحادثة ، وتتلاحق على اللفظ الواحد ، فربما انتهى الامر الى « لفظ » تراكمت عليه معـــان حادثة متجددة ، تجمع بينها روابط قريبة المنال ، وروابط بعيدة المطلب ، ولكن « اللفظ » يبقى لفظا كسائر الفاظ اللغة ، يتكلم الناس به ، ويستعملونه فى بيانهم ، ولكن ينشأ الغموض والابهام ، من عدم القدرة على بلوغ كنه هذه الروابط القريبة البعيدة ، وينشأ فساد النظر فى الفكر ، من استـــخدامه هذا « اللفظ » أداة للتفكير ، تبعا لقصور القدرة عن بلوغ كنه هذه الروابط التى تشد معانيه القديمة والحادثة بعضها الى بعض شدا محكما ، للدلالة على معنى مركب تكون له فى الذهن صورة جامعة •

وهذه الصورة الجامعة هى منشأ كل اختلاف فى اللغة ، وكل اختلاف فى الفهم ، وكل اختـلاف فى التفكير • فاذا بدأ المرء يفكر مستخدما لفظا ينطوى على صـــورة جامعـــة ، وعـــرض له فى ادراك هـــذه الروابط عارض من الوهم ، أو ســـوء التقدير ، او اساءة فهم الروابط ، أو تغليب بعض المعانى الحادثة فيه على بعض ، أو ماشئت من وجوه أخرى كثيرة ، كان تفكيره مهددا بسلوك طريق غريبة يجره اليهـــا بعض مابنى عليه تفكيره • وعلى قدر ما يعرض له من الوهم ، أو سوء التقدير ، أو اساءة فهم الروابط ، أو تغليب بعض المعانى الحادثة فيه على بعض ، يحدث له انحياز الى جانب من الفكر ، لم يكن لينحاز اليه اذا هو برأ من ذلك براءة تامة ، أو برأ من بعضـــــه براءة مشوبة بالنقص ، وعلى مثل ذلك يكون شأن الذى يتلو كلاما ويحاول ان يفهمه ، أو يحاول أن يفسره ، فهو عرضة للانحياز الى جانب من الفهم أو التفسير ، يزيد وينقص على قدرمبلغه من كنه الألفاظ التى يحاول أن يفسرها أو يفهمها ، ولا ســـــيما اذا تضمن الكلام ألفاظا تنضم على صور جامعة • والى هذا الباب يرجع أكثر ما تجد من افتراق الفرق فى الملل التى دان بها الناس ، وأكثر ما نشأ من المذاهب المتباينة مع انتمائها الى أصل واحد تصدر عنه، وأكثر ما يعرض لمفسرى النصوص من الاختـــلاف الغريب المتناقض ، حين يحاولون حل الاشكال بالتأويل • فالاشكال عندهم ينشأ من القصـــــور عن بلوغ كنه الألفاظ ذوات الصور الجامعة ، فيحتاجون الى تأويل هذه الألفاظ تأويلا يناسب ماعند كل منهم من قدر من القصور ، فاذا قل القدر ، خف التأويل ، واذا غلا قدر القصور ، أفضى الى غلو فى التأويل •

وقد عرضت فى مقالاتى هذه لبعض الالفاظ ذوات الصور الجامعة ، فاقربها ماذكرته فى المقالة السالفة من معنى « **الثقافة** » ، ومعنى « **الرجعية** » ومن قبل ما عرضت فى المقالة التاسعة الى اربعة الفـــاظ من الفاظ النصارى ، وهى « الخطيئة » و « الخلاص » ، و « الفداء » ، و « الصلب » ، وعرضت فى المقـــالة الثانية عشرة لمعنى « النبوة » ، وأن مفهومها عندنا نحن المسلمين ، مباين لمفهومها عند اهل الكتابين من اليهود والنصارى ، وفى جميع ذلك حاولت جهـــد طاقتى أن أجعل تعبيرى مطابقا لما أعتقده من الحق ، دون أن أغفل عن هذه الحقائق التى اشرت اليها آنفا• بل ان مدارستى لخبر « **راهب دير الفاروس** » الذى ذكره القفطى فى أخبار شيخ المعرة ، ان هو الا تطبيق كامل لكل ما ينشأ عن الفاظ اللغة من الاختلاف ، وما ينشق عن اختلافها من أوهام ، وما يستخرجه المستخرج منها من المعـــانى ، على قدر معرفته باللغة

اولا ، وعلى قدر أمانته فى الفهم ، ثانيا ، وعلى قدر ما يكون عنده من العقل أو الخبل أو الاضطراب أو الهوى ثالثا ورابعا وخامسا الى أعداد كثيرة من البلايا والمصائب · بل ان ما عرضت له فى المقالة السالفة من الحديث عن «النقد الموضوعى» واختلاف وجوهه ، حتى يعرض لك أن تسمى «النقد الموضوعى» « نقدا شخصيا » ، ان هو الا ضرب آخر من التطبيق لمفهوم هذه القضية الكبرى فى اللغة · بل ان ما استخرجته من كلمات «أجاكس عوض» من الدلائل التى تدل على صورته العقلية والنفسية ، انما قام على هذا التطبيق نفسه ·

وقد وجدت انى قد استعملت فى المقالة السالفة لفظ « **الدين** » ، وما يقال من ان ثقافة الشعب ، ان هى الا تجسيد لدين الشعب ، ولكنى لم ابين شيئا مما يمكن أن يكون زيادة فى مفهوم هذه العبارة التى قالها اليوت ، لانى لم اتعرض لبيان معنى « الدين » نفسه ، ومعانيه عند أهل الاسلام ، فلذلك آثرت ان اعرض لمعنى « الدين » ، لان اكثر مقالاتى قد دار على ما يمس هذا المعنى مسا دانيا أحيانا ، ومداخلا أحيانا أخرى ، ومع ذلك ، فانا لم انس ان أوضح طرفا من معانيه فيما سلف ، كالذى جاء فى المقالة التاسعة حين عرضت لالفاظ النصارى فى دياناتهم ، وفى المقالة العاشرة حين عرضت لبعض ما قاله توينبى من ذكر « **اللغة الدينية** » ، وظنه أن اللغة العربية « **لغة دينية** » ، وهو باطل شديد الظهور ، ثم ما قلته فى المقالة الرابعة عشرة عن معنى «الدين» وفرق ما بيننا وبين سائر اصحاب الديانات فى معناه

ولفظ « الدين » من الفاظ اللغة التى لها فى الذهن صورة جامعة ، او ينبغى ان تكون لها صورة جامعة فواجب أن نعرف تمام المعرفة حقيقة معنى «الدين» وما تراكم عليه من المعانى الحادثة المتجددة ، وأن نحاول محاولة صادقة تؤدى بنا الى بلوغ كنه الروابط التى تجمع هذه المعانى ، وتشد قديم معانيه وحديثها بعضها الى بعض شدا محكما ، حتى يدل هذا اللفظ على معناه المركب ، وهو المعنى الذى له صورة جامعة فى الذهن ، يدركها عند سماعه ·

فالدين ، على قدر ما بلغنا من اللغة ، هو فى الاصل الحال التى يخضع لها الانسان خضوعا طارئا أو مستمرا ، هكذا قدرته · ومن شوارد ما رواه النضر بن شميل انه سأل اعرابيا عن شىء ، فقال له: « لو لقيتنى على دين غير هذه لاخبرتك » ، اىّ على حال أو عهد غير الذى وجدتنى واقعا تحت سلطانه.

ثم قيل : « دان للحكم » ، أى خضع له وذل ، لانه دخل تحت حال قاهرة لا يملك الخروج من سلطانها، ومنه سميت العادة « دينا » ، لان الخضوع لها اظهر شانها ، ثم سمى السلطان نفسه « دينا » ، لأن الناس يخضعون له ويذلون ، وسميت الطاعة « دينا » ، لان المطيع خاضع ، ثم سمى حساب الناس على أعمالهم ومكافاتهم بهـا ، ان خيرا فخير وان شرا فشر « دينا » ، لانه لايكون حساب ولامكافأة ولا جزاء الا من قاهر على مقهور خاضع ، ثم صار كل مايلتزمه المرء من عادة يخضع لها ، أو اسلوب من الفكر أو الحياة لا يفارقه مريدا أو غير مريد « دينا » · وهذه معان مشتركة كما ترى ، يمكن أن تتناول كل التزام يخضع له البشر أو غيرهم على وجه من وجوه الخضوع المريد ، أو الخضوع غير المريد ، فهو خليق ان يسمى « دينا » ، كالكرم والشجاعة والوفاء بالعهد ، وسائر ضروب الاخلاق حسنها وقبيحها ، كل ذلك داخل فى معنى « الدين » .

والعرب فى جاهليتها ، قد استعملت لفظ «الدين» بهذه المعانى المفردة ، وبالمعنى الجامع لبعض هذه المعانى المفردة أو لجميعها · وانما يتبين المراد فى كل موضع من ملابسة الالفاظ بعضها لبعض فى تركيب الجمل ، فلما نزل القرآن العظيم جاء لفظ «الدين» فيه بهذه المعانى على الوجه الذى ألفته العرب فى لسانها ، فجاء تارة بمعنى الحساب والجزاء ، كما فى قوله تعالى : « **مالك يوم الدين** » ، وهو يوم جزاء الناس باعمالهم التى عملوها فى دنياهم وحسابهم عليها ، وجاء تارة بمعنى الطاعة ، كقوله تعالى فى سورة لقمان :

« **واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين** » ، اى الطاعة والخضوع لقهره وحكمه وسلطانه سبحانه ، وجاء بهذا المعنى فى غير موضع من الكتاب · وجاء تارة أخرى بمعنى الحكم ، كما قال سبحانه فى سورة النور : « **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** » ، اى فى حكم الله الذى أمركم أن تطيعوه وتعملوا به خاضعين ، وافق ذلك ما تحبون أم لم يوافقه ، وجاء تارة أخرى بمعنى الطريق الذى يعتاده المرء ويخضع له ويألفه ، كالذى فى قوله تعالى : « **لكم دينكم ولى دين** » اى لكمْ طريقكم الذى ألفتموه أنتم وآباؤكم من

قبل ، ولى طريقى الذى هدانى اليه الله سبحانه صراطا مستقيما . ثم جاء تارة أخرى بالمعنى الجامع لهذه المعانى فى غير موضع من كتابه ، كقوله تعالى فى سورة التوبة : « **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين** » ، وهو الاسلام ، دين الحق ، كما سماه الله سبحانه ، وهو « الدين » الذى أنزله الله على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أول بعثته ، وجعل تمامه فى يوم الجمعة ، التاسع من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة ، حيث نزلت عليه وهو واقف بعرفة آية تمام الدين ، وهو قوله تعالى فى سورة المائدة : « **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » ، وهو الاسلام الذى بين الله الحكم فيمن أبى اتباعه من أصحاب الملل جميعا فقال فى سورة آل عمران : « **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** » .

وهذا اللفظ الجامع عند المسلمين ، لاينفك عن معنى الخضوع لله سبحانه وتعالى بالطاعة ، وسلوك السبيل التى هدى اليها صراطا مستقيما ، فيما أنزل الينا من كتابه على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وفيما أمرنا به نبيه صلى الله عليه وسلم الذى لاينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، كما وصفه ربه فى سورة النجم ، وجعل طاعته شرطا من شروط الايمان والاسلام فى آيات كثيرة ، كقوله فى سورة النساء : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** » ، ثم بين سبحانه أن (الرسول) الذى يرسله لعباده ، لايتم لمؤمن ايمان برسالته حتى يطيعه ، فقال بعد آيات : « **وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله** » ، ثم اتبعها بالحكم على من أبى أن يسمع لرسوله ويطيع بلا تردد ولا ارتياب ولا جدال ، بالخروج من الايمان فقال سبحانه : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** » . وقال فى سورة الاحزاب : « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** » .

فصار بينا بهذه الآيات وغيرها ان «الدين» عندنا ، وهو الاسلام ، انما هو ماأنزل الله على نبيه من كتاب ، هو القرآن ، وما نطق به رسول الله من أمر ونهى ، وهو الحديث والسنة ، وهما جميعا « الدين » الذى رضيه الله لنا ، وأمرنا باتباعه ، والخضوع له ، فيما أحببنا وفيما كرهنا ، وأن ليس لاحد أن يخالف حكما أنزله الله فى كتابه ، ولا حكما قضى به رسول الله صلى الله عليه فى سنته ، سواء كان هذا الحكم قضاء فى أمور الناس ، وهو الشريعة ، أو قضاء فى أخلاق الناس ، وهو الآداب ، أو قضاء فى الخضوع لله بالقلب والجوارح واللسان ، وهو العبادة . ولكن كل هذا لايستقيم وحده ، لان المطالبين بأن يسلموا وجوههم لله ، وأن يطيعوا الله والرسول ، لم يطالبوا به عن طريق الاكراه والقهر والغلبة ، بل طولبوا به عن طريق الحجة والبرهان والدلالة ، أى عن طريق العقل والتفكير والتمييز بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والرشد والغى ، ولذلك قال سبحانه فى سورة البقرة : « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** » . فصار واجبا اذن أن يكون الكتاب والسنة ، متضمنين لاسلوب يهتدى به العقل عند الفصل فى الامور المشتبهة ، لانه عن طريق هذا الكتاب ، وعن طريق هذه السنة التى جاءت بيانا عن مجمل الكتاب ، طولب ذوو العقول أن يعلموا علما لا شك فيه أن الكتاب الذى أنزل اليهم ، انما أنزل بعلم الله ، وانه هو كلامه سبحانه المفارق لكلام عباده من البشر ، وأن يعلموا أن هذا الرجل الذى جاءهم بالكتاب من ربهم ، انما هو رسول من الله أرسله اليهم ، لاينطق عن هوى ، بل حديثه وحى يوحى اليه ، لكى يبين عن معانى الكتاب الذى أمر أن يقرأه على الناس على مكث ، غير مباح له أن يزيد فيه أو ينقص منه ، بل أمر بتبليغه الى الناس بلفظه ونصه ، كما تلقاه من فى جبريل عليه السلام .

ولما كان الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والرشد والغى ، أمورا لا تحد كثرة وتشعبا ، وكانت وسائل التمييز بين مختلفاتها ينبغى أن تكون شاملة لاصول وثيقة محكمة على اختلافها وتباينها ، كان بينا ، بعد هذا ، أن «الدين» عندنا لابد أن يشتمل أيضا على الدلالة على هذه الاصول الصحيحة المحكمة التى يسترشد بها العقل فى طريقه ، أى فى التفكير والنظر والاستدلال . واذا كان ذلك كذلك ، كانت

هذه الاصول الجوامع هى أيضا قضاء من الله ورسوله، لا تختلف فى وجوب اتباعهـا عن قضاء الشريعة ، وقضاء الآداب ، وقضاء العبادات • واذا كان التفكير والنظر والاستدلال لا يتم الا عن طريق اللغة والفاظها وتراكيبها ، كان لا بد من اشـتمال هذه الاصول الجوامع ، على دليل يهتدى به العقل عند التورط فى المشكلة الكبرى التى تنشأ من تراكم المعـانى على الفاظ اللغه ، ومن تباين الاسـاليب التى يتم بها تركيب هذه الالفاظ ، طلبا للابانة عن المعانى ، وهذا قريب الشبه جدا مما نسميه « علم المنطق » • فصار بينا أيضا أن « الدين » عندنا ، لا بد له من أصول ضابطة للتفكير كأصول المنطق ، لا عن طريق النص، بل عن طريق الاسـتنباط من نص القرآن ونص السنة• ومن عند هذا الموضع المشكل الذى لاينضبط انضباط قضاء الشريعة ، وقضـاء الآداب ، وقضاء العبادات ، أظنه ، والله أعلم ، نشأ الخلاف الأعظم فى الاسلام بين أصحاب القياس ، وأهل الظاهر الذين يبطلون القياس ويقيمون على دلالة النص • ولكن هذا شئ ليس مما يمكن بيـانه فى مثل هذا الموضع ، أشرت اليه كالتذكرة للبحث •

وهذه الجمل التى ذكرتها فى معنى «**الدين**» عندنا، محتاجة بلا ريب الى تفصيل ، ولا يستبين معنـاها تمام الاستبانة حتى نعرف على وجه من وجوه التحديد والدقة ، تفاصيل هذه الاقضية الاربعة التى ذكرتها، وهى قضـاء الشريعة ، وقضـاء الآداب ، وقضاء العبـادات ، وقضاء أصـول النظر والاستدلال • والطريق الى هذا أن نحاول محاولة صادقة فى تتبع جامع البيان عن هذه الاقضية ، فاذا فعلنا استطعنا أن نجلو من وجه الحق فى معنى هذا اللفظ «الدين» ما هو ؟ فاذا تبين معناه ، كان تبينه عاصما للفكر من الزلل عند الكلام فى أمر من أمور «الدين» • ثم كان تبينه عاصما أيضا من الضلال فى بحث الالفاظ التى يدخل فى بعض بياتها لفظ «الدين» • ثم كان تبينه عاصما أيضـا من الخلط فى المعانى التى يدخلها الناس فى «الدين» من قبل تأويل الالفـاظ ، أو يخرجونها من «الدين» من قبل نقيض التأويل ، وهو ابطال معـانى الالفاظ تحكما وعرامة ، (أى جهلا منشؤه البطر عن طريق الاغترار بالعلم) • وتأويل الالفاظ حتى تخرج عن حق دلالتها ، وابطال معانيها عرامة حتى لا تكون لها دلالة البتة ، داءان قديمان ، ولكنهما اليوم أكثر شئ تفشيا فى كتابة الكاتبين •
فمن أجل ذلك رأيت أن أكتب هذه الكلمات ، ثـم أتبعها ببعض البيان عن معنى «الدين» عندنا • وهو وان لم يكن مجهولا منذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحق من ربه ، الا أنه قد انتهى الى أن يكون كالمجهـول بعد أن غلبت على ديار الاسلام حضارة نابعة من تراث أهـل الكتابين المذكورين فى كتابنا المنزل ، وذلك لانهم يسـتخدمون لفظ « الدين » ، للدلالة على شئ يأبى ديننا نحن أن يسلم بدلالته اياه مطلقا ، ثم شاع اللفظ عند عامة أهلنا بالمعنى الذى جاء فى تراث أهل الكتابين ، فدخل على معنى «الدين» ما ليس منه ، وحدث اختلاط وفساد ، كلاهما يؤدى الى سوء التفكير ، والى ضلال النظر عن الحق الذى أمرنا باتباعه •

فمن اجل ذلك ، ينبغى أن ندل على معنى «الدين» عند أهل الكتابين ، كما هو ظاهر فى كتابيهما ، لكى يظهر الفرق بين معنى «الدين» عند أهل الاسلام ، ومعناه عندهما • واذا ظهر هذا الفرق ، استطعنا أن نحـدد مكاننا الذى ينبغى أن نقف فيه ، وأن نزيل اللبس الذى يؤدى اليه اختلاط معانى الالفاظ على المتكلمين والسامعين ، أو على الكاتبين والقارئين •• وليس هذا الامر من اليسر بالمكان الذى يتوهمه المرء عند النظرة الاولى ، بل هو أمر شديد التعقيد ، أرجو أن أستطيع حل عقده حتى لا يتورط القارئ فيها ، وحتى لا تشتبه عليه السـبل فى زمان نحن أحوج ما نكون فيه الى الدقة والتغلغل والنفاذ الى أعماق المعانى والالفاظ ، بلا حيرة ولا بلبلة ولاعى عن بلوغ أقصى ما نطيق من التمييز •

وفى هذا الصـدام بين ارث وجـودنا ، وارث حضارتنا ، وارث ثقافتنا ، وبين هذا الغازى الصليبى المحترق الشديد الدهاء ، الكثير الوسائل ، المتلفع بالوان من الاغراء والتدجيل ، المتذرع بذرائع الغلبة والسيطرة على النفوس والقلوب والأهواء ، فى هذا الصدام المر لم يبـق لنا الا احدى اثنتين : اما أن نستبسل فتكون لنا غلبة أهـل الحق على شـيعة الباطل ، واما أن نفشل ونتنازع فيما بيننا ، فتذهب ريحنا ، كما ذهبت رياح أمم من قبلنا ، قضى عليها الفشل والتنـازع أن تصبح أثرا بعد عين ، وبالله نعتصم ، واليه نلجأ ، وعليه نتوكل •

« محمود محمد شاكر »

اتجاهات غير سليمة في تعديل نظم الأسرة

للدكتور علي عبد الواحد وافي

تتوالى في هذه الايام دعوات آثمة لاخراج نظمنا الاسرية عن أوضاعها الاسلامية ، والسير بها في طرق شبيهة بما يسير عليه الغرب . وتصدر هذه الدعوات عن فريقين ، أحدهما فريق السطحيين من المتفرنجين الذين يقدسون كل ما هو غربي ، لا لشيء الا لانه غربي ، ولم يؤتوا حظا من الثقافة الاجتماعية والقانونية يتيح لهم التمييز بين الخبيث والطيب . والآخر فريق الهدامين من المبشرين والهيئات الاجنبية والاستعمارية وعملاء هؤلاء وأولئك . وأفراد هذا الفريق ينشرون دعواتهم هذه عن قصد لاشاعة الانحلال في نظامنا العائلي ، واثارة الفوضى والاضطراب تبعا لذلك في كياننا الاجتماعي في جملته ، لأنهم يعلمون أن الأسرة هي الخلية الأولى للمجتمع ، وأنه بمقدار صلاحها أو فسادها تصلح الحياة الاجتماعية أو ترتكس .

ومن هذه الدعوات الآثمة ما يردده بعضهم الآن في صدد القوامة على الاسرة ووحدة مسكن الزوجين .

وذلك أنه بحسب نظمنا الاسلامية يرتبط الزوجان كلاهما بالآخر بطائفة من الحقوق والواجبات المتبادلة فكل حق لأحد الزوجين على زوجه يقابله واجب يؤديه اليه ، والى تبادل هذه الحقوق والواجبات يرجع الفضل في تحقيق التوازن بين الزوجين من النواحي الاجتماعية والمدنية واستقرار حياة الاسرة واستقامة امورها .

ومن أهم الواجبات التي تقع على كاهل الزوج رعاية الاسرة والاشراف على شئونها والانفاق على جميع افرادها . ويقابل هذه الواجبات حقوق له على زوجته أو واجبات عليها نحوه . ومن هذه الواجبات أن تقيم معه حيث يريد فلا تتخذ لنفسها مسكنا غير مسكنه .

وليس هذا الوضع مقصورا على الشريعة الاسلامية بل انه الوضع المقرر في معظم شرائع الامم المتحضرة وان كان الغربيون لا يراعونه مراعاة أمينة في حياتهم العملية ، لما أصاب نظمهم العائلية من انحلال وفساد أشرنا الى طرف منهما في مقالنا السابق . فالقانون المدني الفرنسي مثلا يقرر في مادته الثالثة عشرة والرابعة عشرة بعد المائتين أن « الزوج » تجب عليه صيانة زوجته وأن يقدم لها كل ماهو ضروري لحاجات المعيشة في حدود مقدرته وحالته . وان المرأة في مقابل ذلك ملزمة بطاعة زوجها وأن تسكن معه حيث يسكن وتنتقل معه الى أي مكان يرى صلاحيته لاقامتهما » . وتكاد هاتان المادتان تكونان ترجمة لقوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم » ، وقوله « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ... لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لايكلف الله نفسا الا ما آتاها » .

ولسنا هنا بصدد واجبات خلقية أدبية كواجب الصدق واجتناب الغيبة والنميمة وما الى ذلك من الواجبات التي يمكن الفرد أن يغفلها بدون أن يخشى قهرا ولا تدخلا من جانب السلطة الحاكمة ، بل بصدد واجبات يحميها القانون ، وتسهر السلطة الحاكمة على تنفيذها ، حفاظا على استقرار الاسرة واستقامة شئونها ، فتأخذ المقصر فيها بتقصيره وترغمه ارغاما على القيام بما أغفله منها ، بل تعاقبه أحيانا على محاولة التحلل مما تفرضه عليه . فان قصر الزوج في الانفاق على زوجته أرغمه القانون على ذلك ارغاما ، واتخذ حياله جميع مايمكن اتخاذه من وسائل القهر بل انه ليذهب أحيانا في هذا السبيل الى الحكم عليه بعقوبة الحبس والأشغال، وان نشزت الزوجة، أي لم تشأ أن تسكن حيث يسكن الزوج ويريد اسكانها ، تدخل القانون كذلك فأرغمها على الاذعان لما سنه من أوضاع . وقد جرت العادة أن يسمى المنزل الذي ترغم الزوجة الناشز على سكناه مع الزوج « بيت الطاعة » ، ويسمى الحكم « حكم الطاعة » ، وهو اسم ثقيل الوقع على السمع ، وحبذا لو سمي « حكم المتابعة » ، كما يسمى بذلك في سوريا ، وأفضل من هذا وذاك أن يسمى « **الحكم بوحدة المسكن** » .

والاوضاع على هذه الصورة أوضاع متوازنة مستقيمة : حقوق تقابلها واجبات ، وتدخل من جانب القانون عند تقصير احد الطرفين فى واجباته بعد استيفاء حقوقه : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » ، بل ان قانوننا لينطوى على عطف كريم ورعاية رحيمة لجانب المرأة ، فهو لا يوقع أية عقوبة على الناشز ، كما يوقعها أحيانا على الزوج المقصر فى نفقة زوجته ، وكل ما يفعله فى هذه الحالة أن يلزمها بالعودة الى بيت زوجها ، بل انه لايلزمها بهذه العودة الا بعد معاينة السلطة القضائية لهذا البيت والتأكد من أنه مسكن مستقل مستكمل المرافق متوافرة فيه وسائل الراحة وموائم لمركز المرأة الاجتماعى وحالة يسار الرجل .

غير أن جماعة المتفرنجات والمتفرنجين المقدسين لما تسير عليه نساء الغرب فى واقع حياتهن وجماعة الهدامين الذين أشرنا اليهم فى صدر هذا المقال لاينفكون يرددون ويكتبون فى الصحف والمجلات أن فى ارغام الزوجة على الرجوع الى بيت زوجها مساسا بكرامتها وتحقيرا لشأنها واهمالا لارادتها . وقد فاتهم أن القانون لايعمل عمله هذا الا مع الزوجة الناشز ، أى التى تعدت حدود المجتمع ، وانتهكت قوانين الأسرة ، وأن تصرفه هذا ينطوى على رد الامور الى اوضاعها السليمة ، وان رد الامور الى اوضاعها السليمة بعد أن يخل بها بعض الافراد لابد أن يتسم بشىء من القسوة على المخالف وعدم مسايرته فى رغباته ، وانه يسلك ما هو أشد من ذلك مع الزوج اذا قصر فى واجب النفقة المقابل لهذا الحق، حتى ان الامر ليصل الى حبسه . فهو لايحابى أحد الزوجين على حساب الآخر ، وانما يلزم كليهما القيام بواجبه ، ويرعى الصالح العام ، ويعمل على استقرار حياة الأسرة ووقايتها من الانهيار .

وثمة طائفة أخرى من هؤلاء المتفرنجين والهدامين لاتنفك تردد أنه لايصح ارغام الزوجة على البقاء مع زوج لاتحبه ، وقد فاتهم فى هذا الصدد أن الحب والغرام من مقومات العشق والمخادنة ، وليسا من المقومات الاساسية للزواج فى شىء . فالزواج يقوم على دعائم عمرانية أسمى كثيرا من شئون العواطف والوجدان . انه وظيفة اجتماعية يؤديها كلا الزوجين لصالح المجتمع وصالح النوع الانسانى ، وتقع بمقتضاها على كاهل كليهما واجبات حيال الآخر وحيال الاسرة والوطن والانسانية جمعاء . وقد أبان عن ذلك عمر بن الخطاب فى أبلغ عبارة اذ يقول لمن ذهب اليه يستشيره فى طلاق امرأته لأنه لا يحبها : « ويحك ! أو لم تبن البيوت الا على الحب ؟! فأين الرعاية وأين التذمم ؟! » يقصد أن البيوت اذا عز عليها أن تبنى على الحب ، فهى خليقة أن تبنى على ركنين آخرين شديدين أوثق صلة بأغراض الزواج من الحب وتوابعه ! احدهما الرعاية التى تبث المراحم فى جوانب الاسرة ويتكافل بها أهل البيت فى معرفة مالهم وما عليهم من الحقوق والواجبات ، وثانيهما التذمم والتحرج من أن يصبح أحد الزوجين سببا فى تفريق الشمل وتقويض البيت وشقوة الأولاد وما قد يأتى من وراء ذلك كله من نكد العيش وسوء المصير .

ولو تدبر الذين يعترضون على هذا النظام من طيبى النية ما يترتب على الغائه من نتائج خطيرة هدامة ما حدثتهم نفوسهم بالاعتراض عليه . وذلك أن الاوضاع التى يتصور العقل أن تقوم عليها الأسرة اذا ألغى هذا النظام لا تخرج عن احد أمرين :

(أحدهما) أن يكون للزوجة مطلق الحرية فى أن تسكن مع الزوج أو لا تسكن معه . واذا نشزت ولم تسكن معه تظل زوجة له من الناحية القانونية مع بقائها بعيدة عنه ، ولا يحق للقضاء أن يتدخل . وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل اليه الفوضى من الناحيتين الاجتماعية والقانونية ، فيستحيل منزل الزوجية وبيت الأسرة الى نزل مؤقت أو فندق تقيم فيه الزوجة اذا راقت لها الاقامة فيه وتغادره متى شاءت وشاءت لها أهواؤها ، بدون أن يتأثر بذلك ميثاق الزواج ، وبدون أن يستطيع القانون عمل شىء حيالها . فتنعم المرأة فى هذه الحالة بجميع الحقوق والحريات بدون أن تحتمل أى واجب ، وبدون أن تقيد حريتها بأى قيد . وهذا الوضع من الفوضى لا نظير له حتى عند الحيوانات والطيور التى تعيش زوجين ، ولا يمكن أن يسود وضع كهذا فى مجتمع ما بدون أن يؤدى الى الغاء نظام الاسرة نفسه كما حدث فى كثير من الاوساط الاوروبية التى أشرنا اليها فى مقالنا السابق .

ولا يكفى لتلافى شىء من هذه الأضرار أن يقرر القانون حرمان الزوجة الناشز من النفقة كما يقترح بعضهم مستندا فى ذلك على رأى لبعض الفقهاء لأن الاكتفاء بحرمان الناشز من النفقة ليس من شأنه أن يردعها عن غيها ولا أن يرد الامور الى نصابها الصحيح . هذا الى أنها لا تنشز الا وهى موطنة عزمها على الاستغناء عن الزوج ونفقته ومدبرة أمرها

على وجوه أخرى وراء ذلك ٠ والزوجة ليست اجيرة حتى يقال انها تستحق النفقة ما دامت فى عملها ، فاذا انقطعت عنه انقطعت عنها النفقة ، ولا سلطان لأحد عليها ٠ والزواج ليس عقدا بين عامل ومالك، بل هو أسمى واقوى من ذلك كثيرا فى قيــوده والتزاماته ووظائفه الاجتماعية ٠

وقد ذكرت الصحف أخيرا أن لجنة تعديل الاحوال الشخصية قد رأت الاكتفاء بحرمان الناشز من النفقة وأن رئيسها قد سأله بعض مراسلى الصحف فى هذا الموضوع أو فى موضوع آخر من هذا القبيل فقال ما معناه :ان أعضاء اللجنة لم يكونوا مرتاحين الى هذا القرار ولم نجد له سندا قويا فى المذاهب الفقهية ، ولكننا اقترحناه « لسد أفواه النابحات » (أو كما قال) ٠

ولا أدرى لماذا تدعونا الاستجابة لبعض دعوات شاذة لاتمثل الحكم الاسلامى الصحيح ولا التقليـد المصرى الاصيل فى شىء الى أن نخرج عن عرفنا ،وعن القواعد المحكمة فى ديننا ، وعن الدعائم السـليمة لأسرتنا ، ونلتمس لهذه الاستجابة بعض آراء ضعيفة فى الفقه الاسلامى ؟! ٠

(وثانيهما) أن يفرق بين الزوجين بمجرد أن تنشز المرأة وتبدو منها الرغبة فى عدم معاشرة زوجها ٠ ويكون معنى ذلك من الناحية العملية أننا جعلنا الطلاق بيد الزوجة توقعه متى شاءت ، وأننا نقلناه من يد الزوج فى صورته المقيدة بعدة قيود والتزامات الى يد الزوجة فى صورة طليقة لايحدها قيد ، ولاتخضع الا لما تمليه أهواء العاطفة ونزوات الوجدان وغنى عن البيان أن هذا الوضع لايقل فى نتـائجه الهدامة وما يؤدى اليه من فوضى واضـطراب عن الوضع السابق ٠

هذا ، وقد زعم بعض الناس أن الاسلام لايجبر المرأة الناشز على الرجوع الى زوجها ، وانما يقضى فى هذه الحالة بالتفرقة بينهما ، ويسـتدلون على رأيهم بقصة وردت فى صحيح البخارى وفى غيره من كتب السنة خاصة بامرأة ثابت بن قيس ، مع أنه ليس فى هذه القصة مايدل على شىء مما يذهبون اليه ٠

وتتلخص هذه القصة فى أن امرأة ثابت بن قيس لم تطق البقاء مع زوجها لأمر لم تصرح به ، ولعله يرجع الى العلاقات الزوجية فى أخص شئونها ، لأنها ذكرت أنها لا تعتب عليه فى خلق ولا دين ، وتخشى ان بقيت معه أن تفتن فى دينها ، فلا تراعى حدود الله فعرضت أمرها على الرسول صلى الله عليه وسلم فرأى عليه السلام بعد دراسة موضوعها أنه من الخير التفرقة بينهما ، واقترح عليها أن تتنازل لزوجها عما دفعه لها من صداق ، وقبل الزوج أن يطلقها فى مقـابل ذلك ، فتمت الفرقة بينهمـا على طريق الخلع الذى يقره القرآن اذ يقول : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يخافا الا يقيما حدود الله ، فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيمـا افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » ٠

وفيما يلى نص هذا الخبر كما ورد فى صـحيح البخارى : « عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله : ثابت بن قيس لا أعتب عليه فى خلق ولا دين ٠ الا أنى أخاف الكفر (تقصد تعدى حدود الله) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتردين عليه حديقته ٠ قالت نعم ٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » ٠

وغنى عن البيان أن الامر الوارد فى الحديث فى قوله « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » أمر ارشـاد لا ايجاب بدليل أنه جعل الطلاق بيده ، وعرض عليه بدلا فى مقابله ، وعلق التفرقة بينهما على قبوله ٠

فليس فى هذا الحديث ما يدل على ارغام الزوج على تطليق زوجته الناشز ، ولا على جـواز التفرقة بينهما بحكم من القضاء ٠

صحيح أن الاسـلام يجيز التفرقة بين الزوجين بحكم من القضاء اذا رفعت الزوجة أمرها اليه شاكية مما يلحقها من زوجها من ضرر وايذاء بليغين أو تقصير فى حقوقها أو عجز عن أدائها وثبتت صحة شكواها (وهذا هو مذهب الامام مالك ، وقد أخذ به القانون المصرى رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٥) ٠ ولكن هذا أمر آخر غير مجرد النشوز وكراهية الزوجة البقاء مع زوجها٠

هـذا ، وقد أخذ كثير من البـاحثين على القانون المصرى أنه يرغم المرأة الناشز على الرجوع الى زوجها عن طريق الاكراه البدنى وتدخل رجال الشرطة ٠ وقد يكون لهم الحق فى مآخذهم هذا ٠ فان هذا النوع من الاكراه ينطوى على اهدار علنى لكرامة المرأة ، ويوسع من شقة الخلاف بين الزوجين ٠ وليس الاكراه البدنى هو الوسيلة الفذة لاكراه المرأة الناشز عـلى الاذعان لنظم الاسرة وآدابها ٠ فأمام القانون لتحقيق هذا الاذعان وسائل أخرى كثيرة أدنى الى صـيانة الكرامة واقوى فى رد المنحرف الى الطريق المستقيم وان شريعة الاسلام لتقنع بأية وسيلة يعلم بها النساء ان ليس لهن الحق فى النشوز مادمن قد اسـتوفين ما يجب لهن من حقوق ، وأن النظام العام لايقرهن على ذلك ان أقدمن عليه ٠

«د٠على عبد الواحد وافى»

شرح وتحليل

لموقف من مواقف عمر بن الخطاب

بقلم: محمد محمد المدنى

يعجب بعض النـــاس من موقف ســـيدنا **عمر ابن الخطاب** رضى الله عنه اذ دعاه رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بالحديبية ، ان يكون سـفيره الى قريش بمكة ليبلغها انه ما جاء هو وأصحابه الا زائرين البيت الحرام لأداء منسك العمرة ، غير مقاتلين ولا غازين ، فاعتذر عمر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : يا رسـول الله ، ليس لى بمكة أحد يغضب لى ان أوذيت ، فأرسل عثمان بن عفان ، فان عشيرته بها ، وانه مبلغ ما أردت ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان فبعثه .

يعجب بعض الناس من هذا الموقف ، اذ كان عمر رضى الله عنه معروفا بالقوة والشجاعة ، لا بالضعف ولا بالخوف ، وهو الذى اعز الله به الاسـلام يوم أسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوقع منه ذلك ، اذ دعا ربه أن يعز الاسلام بأحب الرجلين اليه : عمر بن الخطاب ، أو أبى جهل ، فكان من فضل الله على عمر أن كان أحب الرجلين الى الله ، فلمـا أسلم قال : يا رسول الله ألسنا على الحق ان متنـا وان حيينا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : بلى والذى نفسى بيده : انكم على الحق ان متم وان حييتم ، قال: ففيم الاختفاء ؟ ـ وكان ذلك فى فترة الاسرار بالدعوة ـ والذى بعثك بالحق لتخرجن ، فأذن بالاعلان،وخرج صلى الله عليه وسلم فى صفين ، عمر فى أحدهما ، وحمزة فى الآخر ، ولهم كديد ككديد الطحين ـ أى غبار يثور من مشيهم كغبار الدقيق ـ حتى دخـل المسجد ، فنظرت قريش الى عمر والى حمزة ،فأصابتهم كآبة لم تصبهم قط ، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الفاروق (حلية الأولياء ج ١ ص ٤٠) .

وكذلك بدت قوة عمر وشجاعته يوم هاجر الى المدينة معلنا سفرا وكان الناس يهاجرون مستخفين ـ فقد روى عن على كرم الله وجهه انه قال : ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا ، الا عمر بن الخطاب ، فانه لما هم بالهجرة تقلد سـيفه ، وتنكب قوسـه ، وأخذ فى يده أسهما ، وحمل عصـاه التى تشـبه الرمح على خاصرته ، ومضى نحـو الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها يجلسون حلقا حلقا، فطاف بالبيت سبعا متمكنا ، ثم أتى مقام ابراهيـم فصلى ، ثم وقف على القوم فى مجالسهم حلقة حلقة ، فقال لهم : شاهت الوجوه ! لا يرغم الله الا هـذه المعاطس . من أراد أن يثكل أمه ، أو يوتم ولده ، أو يرمل زوجته ، فيلقنى وراء هـذا الوادى ! قال على رضى الله عنه : فما اتبعه الا قوم من المسـتضعفين علمهم ما أرشدهم ، ثم مضى لوجهـه ـ أى لتنفيذ قصده ـ (راجع الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٩٨ وأسد الغابة ج ٤ ص ٥٨) .

هكذا كان عمر رضى الله عنه فى شجاعته وقـوة قلبه ، وان الحديث عن هذه الشـجاعة وتلك القوة والبسالة فى أخلاق عمر وفى طبيعتـه ، ليعد من فضول القول ، ومن التكثر فى الاستدلال على أمر بلغ من الشهرة والتواتر مبلغا عظيما !

فما بال عمر اذن يعتذر للنبى صلى الله عليه وسلم حين دعاه الى موقف يتفق وما فطر عليه من الشجاعة

وشدة البأس وقوة القلب وصدق الايمان ؟ أجبن اقعده أم خوف ساوره ؟

* * *

لقد اجبنا عن ذلك فى فصل سابق ـ نشرته الرسالة الغراء ـ واكتفينا فيه بالاجمال حيث لم يتسع المقال ، والآن نفصل القول حتى لا تحوك فى الصدور أية شبهة :

ان عمر رضى الله عنه لم يجبن ولم يضعف عن النهوض الى ما ندبه له سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكنه كان يتابع تصرف قائده الأعظم فى قصة « الحديبية » متابعة واعية بصيرة ، فرآه عليه الصلاة والسلام حريصا على أن يحتفظ بالسلام فى هذه الرحلة ، ولا يمتشق الحسام :

رآه يتنكب طريق خالد بن الوليد قائد المشركين يومئذ فيميل الى طريق آخر تنتهى به الى الحديبية بعيدا عن « كراع الغميم » التى نزلها خالد ورجاله المقاتلون ومعهم خيلهم وسلاحهم :

ورآه يستقبل رسل قريش واحدا بعد واحد ، فيستمع اليهم هادئا مستمسكا بحلمه وعفوه ، ويكلمهم مبينا لهم أنه لم يجىء لقتال ، ولا أراد الا أن يزور البيت معتمرا .

ورآه يصفح عن هؤلاء المتسللين من قريش الذين اطافوا بمعسكره فى الحديبية ، وكانوا أكثر من أربعين رجلا يريدون أن يصيبوا من المسلمين ويعتدوا عليهم، مع انهم أخذوا أخذا ، وأتى بهم اليه صلى الله عليه وسلم ، وكان من حقه أن يعاقبهم ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم .

وسمعه يقول : «والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش اليوم الى خطة فيها صلة الرحم الا اعطيتهم اياها » .

واذن فقد كانت الخطة من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم ، هى خطة المسالمة ، والبعد عن كل مايؤدى الى القتال ، وما يعكر الصفاء .

ورأى من الجانب الآخر ، جانب المشركين حمية وتهورا وتوجسا للشر ، وتوعدا بالحرب :

علم أن قريشا حين سمعت بمقدم النبى صلى الله عليه وسلم ، تنمرت وخرجت بخيلها ورجلها يعاهدون الله لا يدخلها محمد عليهم أبدا ، وترصدت له بالطريق ، وكان من الممكن أن تلقاه لولا أنه صلى الله عليه وسلم لم يمكنهم من هذا اللقاء .

وعلم انهم كانوا يسيئون الى من يجيئهم من الرسل بعد ان يلقى رسول الله ويسمع منه ويقتنع بكلامه .

وعلم أنهم كانوا يختارون رسلهم من أصلب رجالهم عودا حتى لا يقع تحت تأثير النبى وصدقه وحسن مفاوضته .

رأى عمر رضى الله عنه كل هذا ، وسمع ما سمع، فكان واضحا لديه أن هذه الخطة المسالمة من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم تقتضى أبلغ الحذر حتى ينتهى الأمر بسلام ، وتقتضى مع ذلك أن يحال بين المشركين وبين اية فرصة تمكنهم من ارتكاب حماقات فى ظل الغضب والطيش ، قد تفسد هذه الخطة وتحمل على الحرب .

فلو أن عمر ذهب اليهم لتهيأت لهم الفرصة للفتك به دون أن يحميهم منه قريب له بمكة او عصبة مجيرة ، فاذا فعلوها فى سورة غضبهم الحاضرة او فى ظل ما يحملونه على عمر من الحقد والغيظ منذ كان يهزأ بهم ويتحداهم ، فماذا يكون الموقف ؟ ايسكت النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه على الفتك بعمر حفظا للسلام ؟ وأى سلام هذا الذى يكون ثمنه عمر بن الخطاب ؟ أم يثيرونها حربا شعواء غاضبة ضاربة على خلاف خطتهم التى رسموها وترسموها ، وهم مع ذلك لم يستعدوا للحرب ، وليسوا بآمنين أن يهزموا فيها ؟

لذلك الهم عمر رضى الله عنه أن يعتذر عن هذه السفارة ، وانه للهم موفق !

وقد بينت الأحداث التى وقعت بعد ذلك مدى توفيقه :

فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب عثمان لهذه السفارة ـ كما أشار عمر ـ فانتدب لها ، وقال له عليه الصلاة والسلام : اخبرهم انا لم نأت لقتال، وانما جئنا عمارا ، وادعهم الى الاسلام ، وامره أن ياتى رجالا بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالايمان .

وقد هيأت شخصية عثمان بن عفان الهادئة

المحترمة فى قريش ، فرصة النجاح الهادىء لسفارته، فانطلق حتى مر على ملأ من قريش بمكان قريب من مكة ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعوكم الى الله ، والى الاسلام ، وأخبركم أنا لم نأت لقتال ،وانما جئنا عمارا ،فقالوا له : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك ·

فهل ترى ، كان عمر بن الخطاب ينفذ بمثل هذه السهولة ؟

ثم ان أبان بن سعيد بن العاص ، قام الى عثمان، فرحب به ، وأسرج فرسه فحمل عثمان على الفرس وأجاره ـ أى أعلن أن عثمان فى جواره ، فلم يكن لاحد مع هذا الجوار أن يمسه بسوء كما هى عادة العرب فى احترام الجوار ، ولا سيما اذا كان المجير رجلا عظيما فى قومه ، مثل أبان بن سعيد بن العاص ، فأردفه أبان حتى جاء مكة ، فصح ما توقعه عمر حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ارسل عثمان فان عشيرته بها ، وانه مبلغ ما أردت ·

وغاب عثمان بمكة ، وكثرت حوادث الاستفزاز من المشركين بالمسلمين ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل ، وهنا ثار وثار معه المسلمون ، ودعاهم الى البيعة وهو تحت الشجرة وقال : اما والله لئن قتلوه لأناجزنهم ، فبايعه المسلمون : بعضهم على الموت ، وبعضهم على ألا يفروا ، والمعنى واحد ، فان البيعة على الموت معناها انهم لا يزالون يقاتلون بين يديه ما لم يقتلوا ، والبيعة على عدم الفرار معناها انهم لا يزالون يقاتلون بين يديه دون أن يفروا ما لم يقتلوا ، وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم احدى يديه على الأخرى ، وقال : هذه لعثمان ·

وهذه هى البيعة المعروفة فى الاسلام ببيعة الرضوان ، لقوله تعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » ويتبين من سببها ومقدماتها : أن الأمر كان يجرى أولا على خطة السلام والحلم والعفو ، فلما أشيع قتل المشركين لعثمان، لم يكن بد من الحرب والمناجزة ، وذلك هو الذى بينا أن عمر ابن الخطاب قد لمحه فالهم الاعتذار عن القيام بسفارة النبى صلى الله عليه وسلم ، لكيلا يعتدى عليه المشركون فتثور ثائرة الحرب ، والاعتداء عليه أقرب وقوعا فى الظن من الاعتداء على عثمان ·

فتلك نظرة عمر ، بينت الأحداث صدقها ·

ثم نقول : ليس الشجاع هو الذى يقدم على الأخطار وهو يعلم ان فى امكانه تجنبها دون ضرر بمبدئه ، ولا تضحية بعقيدته ، وانما الشجاع هو الذى يقدم حيث يجب الاقدام ، ولا يندفع الى ما لا فائدة فيه متهورا ·

وليس كل خوف يعتبر من باب الجبن ، ولكن بعض الخوف حزم ، فقد انبأنا الله تعالى ان نبيه موسى كان « يخاف » وأن أخاه هرون كان يخاف ، وان أمه خافت ·

ومن أراد أن يتتبع مواطن الخوف الذى نسبه الله الى موسى وأهله ، فليقرأ مثل قوله تعالى « قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا اننى معكما أسمع وارى » ـ « واوحينا الى ام موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى » ـ « وقتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون » ـ « فأصبح فى المدينة خائفا يترقب » ـ «فخرج منها خائفا يترقب» ـ«فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ·

فالخوف الذى أنبأ الله تعالى انه كان يساور موسى وأخاه وأمه ، هو الخوف الذى له ما يبرره ، وقد كان عهد فرعون عهدا ظالما يسيطر عليه الطغيان حتى وصل الأمر الى أنه كان «يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم » ، وكان يقول « أنا ربكم الأعلى » فهل يعد الخوف فى مثل هذه الحالات الا أخذا بالحزم ، ونظرا فى وسيلة النجاة ، وحفظا للنفس من أن تهلك وهى تستطيع أن تبقى وأن تؤدى رسالتها التى أرادها الله لها ؟

لذلك لايعد عمر فاقد الشجاعة حين اعتذر ،وحين خاف أن تفتك به قريش ، حتى ولو لم يكن قد قدر الأسباب التى ذكرنا أنها حملته على الاعتذار ،ولكنه بعد حازما حكيما ، فهو يدخر نفسه للموقف الذى يعلم أنه يجدى ، ولا يلقى بيديه الى التهلكة حرصا على الظهور بمظهر الشجاعة ·

بقى أن نتساءل : اذا كانت هذه هى فلسفة عمر فى تقدير ظروف « الحديبية » وخطة الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأنها ، فما باله يقف من شروط الصلح التى ارتضاها قائده ومعلمه الأكبر موقف المعارض الشديد المعارضة ، فيذهب ثائرا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة ، والى أبى بكر الصديق رضى الله عنه تارة أخرى ، ويقول لهما ما قال ؟

وانا لعاقدون لهذا فصلا آخر ان شاء الله ·

« **محمد محمد المدني** »

هجرات من الجنوب العربي

للدكتور: عبد العزيز كامل

- ٥ -

لم تكن الروابط الحضارية بين الجنوب العربي وافريقية قبل الاسلام مقتصرة على قطاع صغير من شرق القارة ، وانما كانت ممتدة على جبهة عريضة تبدأ من سواحل البحر المتوسط في الشمال الى ما وراء العروض الاستوائية جنوبا . وكانت روابط تجارة وتبادل منافع في طابعها العام ، حتى أعطاها اليونان والرومان صبغة دامية عندما توغلوا في البحر الاحمر والمحيط الهندي وسيطروا على التجارة فيهما ..

بين الجنوب العربي ومصر :

واذا بدأنا من مصر وجدنا روابط حضارية قديمة بينها وبين الجزيرة العربية بعامة والجنوب العربي بخاصة ، قبل الاسلام . وجانب من هذه الروابط كان مصدره الجنوب العربي نفسه ، والجانب الآخر كان الجنوب العربي فيه وسيطا بين مصر ومراكز حضارية أخرى .

وقد ساعد الموقع الجغرافي للجنوب العربي على ذلك. فهو يتوسط أقدم حضارات العالم القديم: فالى شرقه حضارات وادي السند في باكستان ، والى شماله حضارات مابين النهرين ، والى شماله الغربي الحضارة المصرية . وكان الجنوب العربي يستطيع الاتصال بكل هذه المناطق بحرا ــ وهو الاتصال الايسر ــ الذي غلب على الاتصال البري أحيانا ، بينما كان طريق البر ــ في بعض الاحيان ــ المسلك الآمن الذي يستطيع اهل الجنوب العربي الاعتماد عليه ، اذا ما سيطر دخيل على البحار حولهم ، كما حدث في القرون الاولى بعد الميلاد عندما جاء اليونان والرومان .

وتبين الآثار المصرية والبابلية أن الصلة البحرية بين مصر وبابل عن طريق الجنوب كانت سابقة للصلة البرية عن طريق الشرق . والأرجح أن الذين قاموا بذلك كانوا ملاحين من عرب الجنوب . ولم يكونوا هم الذين وصلوا بابل بمصر فقط ، وانما وصلوا حضارة وادي السند ببابل وبمصر عن طريق التجارة . وكان لليمنيين القدماء نصيب من المدنية ربما وصل منه شيء الى بابل والى مصر (أحمد فخري : اليمن ص ٦٠)

ويذكر المصدر السابق (ص ٦٠-٦١) «أن البحر الاحمر كانت تمخر عبابه منذ عصر ما قبل الاسرات المصرية أي قبل ٣٢٠٠ ق.م سفن ترتفع مقدمتها ومؤخرتها ، سفن لم تكن معروفة في وادي النيل ، ولكنها كانت معروفة في بلاد ما بين النهرين وفي شواطيء المحيط الهندي . ووفد الى مصر قوم في هذه السفن ووصلوا الى وادي النيل من الجنوب والشرق وأخذوا طريق القصير ــ فقط في رحلاتهم ، وترك لنا هؤلاء الوافدون رسوما لسفنهم على صخور بعض دروب الصحراء الشرقية ، وعلى الكثير من الصخور المطلة على النيل ، كما توغل بعضهم في

ذلك العهد البعيد في الصحراء الغربية ، وتركوا لنا رسوما على بعض صخور الدروب وخاصة في الواحات الخارجة وعلى صخور درب الغبارى بين الخارجة والداخلة ، اذ كانت السفن في نظرهم رمزا لحياتهم السابقة في موطنهم سواء في جنوبي الجزيرة العربية أو في بلاد العراق او غير ذلك ٠

اما الطريق البرى فكان فيه مسلكان : أحدهما أن تخترق القوافل البادية من بابل الى الشام والثاني يتبع طريق الواحات الممتد من اليمن الى الشام مارا بمكة ٠

وعلى هذا كان عرب الجنوب يستطيعون الاتصال البرى بمصر اما من منطقة رأس الخليج العربي أو من أقصى الجنوب الغربي ، هذا الى استخدامهم البحر حين يتوفر فيه الامن ٠ وكان هذا الطريق أقل نفقة ويعطيهم فرصة المرور البطيء على موانى البحر الاحمر حتى تنتهى بهم الرحلة الى مصر ٠

وقد انتشر الشعب المعينى من الجنوب العربي في الجزيرة العربية وخارجها ووصل الى مصر والى بعض جزر بحر اليونان ٠ وترك لنا كثيرا من النقوش والآثار ٠ لكن مما يؤسف له أن معظم ما جاءنا من هذه النقوش لا يحمل تاريخا أو يشير الى حادثة من السهل تاريخها ، اللهم الا هذا النقش الذى عثر عليه في مصر ٠ فقد كتب في العام الثانى والعشرين من حكم الملك بطليموس السادس اى حوالى ١٥٩ ق٠م ٠ ومن هذا النقش يتبين لنا أن جالية معينية كانت نازلة بمصر ، وأنها فيما يرجع كانت تتجر في الطيب والبخور ٠ (فؤاد حسنين : استكمال الترجمة العربية لكتاب «التاريخ العربي القديم تأليف نيلسن وآخرين » ص ٢٦٩)

ولا نستطيع أن نستنتج من هذا الاثر أن المعينيين كانوا « جالية » فقط في مصر ، وانما كانت لهم جالية ٠ أما الروابط بين الجنوب العربي ومصر فكانت أقدم من هذا وأوسع ٠ فقد روى قدماء المصريين في العصر المتأخر لبعض الرحالة أنهم جاءوا من الشرق ومن الجنوب وانهم علموا المصريين الحضارة وأخضعوا البلاد لسلطانهم ٠ ويصفون الطريق الذى جاءوا منه وصفا غامضا لا نعرف عنه شيئا على وجه التحقيق في بدايته ولكنهم استخدموا الطريق الموصل بين البحر الاحمر والنيل مارا بوادى الحمامات بعد ذلك٠ وقد ظل هذا الوادى الى آخر عهد الفراعنة يتمتع بشيء من التقديس (أحمد فخرى اليمن ص ٦٣ نقلا عن تشارلس كينتز) ٠ وقد ظل المصريون القدماء في جميع عصورهم يظهرون احتراما كبيرا لذكرى آل « شمسو ــ حور » أى اتباع حور أو حورس ٠ وهذا الاله لم تكن له في الاصل أية صلة بعبادة الشمس ، وكان رمزا اتخذته احدى القبائل كمعبود لها على هيئة الصقر وأنه جاء مع الفاتحين ٠ وتصف نصوص الاهرام ــ وهى من أهم وأقدم المراجع الدينية (٢٥٠٠ ــ ٢٢٥٠ ق٠م) ــ هذا الاله بكلمات معناها «الشرقى» أو « أفق الشمس » مما يشير الى المشرق ٠

ويتابع الاستاذ الدكتور احمد فخرى دراسته لموضوع حورس مشيرا الى ثلاث نقاط :

١ ــ أن هناك اشارات كثيرة الى أن الموطن الاصلى لحورس هو بلاد بونت ٠

٢ ــ ان اسم حورس غريب على اللغة المصرية ولكنه موجود في اللغة السامية وبعبارة أدق في اللغة العربية ٠ « فالحر هو الصقر ، وقيل هو طائر نحوه وليس به ، أنمر أصقع قصير الذنب عظيم المنكبين والرأس وقيل يضرب الى الخضرة وهو يصيد» (لسان العرب ط بيروت ٤ : ١٨٣) ٠ والأنمر ما كان على شبه النمر وهو ان تكون فيه بقعة بيضاء وبقعة أخرى على اى لون كان ، والاصقع من الطير من بوسط رأسه بياض ٠ ولا زالت كلمة حر مستعملة الى الآن في كثير من جهات الجزيرة العربية وشمال افريقية لهذا الطائر ٠

٣ ــ ان هؤلاء الوافدين ــ اتباع حورس ــ عبروا من جزيرة العرب الى الشاطىء الافريقى في أريتريا ثم ساروا مخترقين البلاد حتى وصلوا الى صحراء مصر الشرقية ودخلوها عن طريق وادى الحمامات ٠

ولم يكن حورس الاله الوحيد الذى قال المصريون بان أصله من الجزيرة العربية بل هناك آلهة أخرى منها الاله بس ٠

ويذكر ارمان (ديانة مصر القديمة ــ الترجمة العربية ص ١٦٥ ــ ١٦٦) انه من الآلهة التى صورتها المخيلة الشعبية في صورة كاريكاتورية ٠ وكان كائنا محبوبا ، مظهره يشيع السرور وهو قزم ملتوى الساقين ٠ وله رأس كبير وذقن منتفش وذيل

كذيل الحيوان . ونستطيع أن نشبهه بمسوخ الاساطير اليونانية فهو مثلهم يظهر فى اعداد كثيرة تمثل فى خدمة الالهة الكبار وتدخل السرور على نفوسهم بالرقص والموسيقى وتسهر على اولاد الآلهة ولكن هذا المركز المتواضع لايمنع من أن يتحول الى اله حقيقى حتى ليسمى الطفل أحيانا « ذلك الذى ينتسب الى بس » . ولقد تطورت وظيفته بعد هذا فى العهد الاغريقى الرومانى فاصبح يجيب على رقاع الاسئلة التى تقدم له . وهذا امر استغله الكهنة (نفس المرجع ص ٤٨٨) وغدا أيضا يحمى الموتى كما يحمى الاحياء (ص ٤٥٤) . اى أن هذا الاله ظلت له مكانته فى مصر حتى العهد الاغريقى الرومانى وان كانت لاتصل الى مكانة حورس بل دونها بكثير .

فالروابط الحضارية بين الجنوب العربى ومصر قبل الميلاد وفى القرون الميلادية الاولى كانت متعددة الجوانب .

١ ـ شملت الهجرات البشرية والتكوين السكانى .

٢ ـ وكانت لها مظاهرها الاقتصادية .

٣ ـ كما أثرت أيضا على العقيدة الدينية .

وبعبارة اخرى اثرت الروابط على التكوين البشرى ومظاهر الحياة المادية والروحية .

ومع ان الجنوب العربى كان المنطقة المؤثرة ـ أو المنطقة المصدرية ـ الا ان الادلة على الاتصال الحضارى كانت من مصر . والى هذه النقطة التفت المؤرخون والباحثون الذين عرضوا لهذا الموضوع . فلا زالت معلوماتنا عن تاريخ اليمن القديم قليلة نادرة ويذكر الدكتور فخرى ـ وله انتاجه وجهده العلمى فى هذا الاقليم « ان اطلال المدن الاثرية فى اليمن مازالت باقية كما تركتها عوادى السنين ولم يفحصها أحد واذا كنا نعرف مما عثر عليه الرحالة من نقوش أن تاريخ بعض المعابد يرجع الى القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد، فانا نكون محقين اذا قلنا ان هناك املا كبيرا فى العثور على آثار من عصور أقدم عهدا من ذلك عندما يتم حفر المناطق الاثرية وخاصة فى بلاد الجوف والمشرق » (ص ٦٤ ـ ٦٥ من كتاب عن اليمن) .

بين الجنوب العربى والحبشة :

واذا كانت الروابط الحضارية بين الجنوب العربى ومصر قد تعرضت لدورات من القوة والضعف ترجع الى عوامل محلية فى كل من القطرين ، وعوامل عالمية أثرت فى المنطقة كلها ، فان التفاعل بين الجنوب العربى واليابس الافريقى المقابل كان ـ بحكم الموقع الجغرافى ـ أقوى فى تلك القرون القديمة قبل الاسلام ، وان كان لهذه العلاقات ـ بدورها ـ فترات قوة وفترات ضعف . وكان هذا التفاعل قوى الاثر على الجانب الافريقى فى القرون الخمسة السابقة للميلاد على الاقل .

واتخذت هذه العلاقات طابعا هادئا أحيانا وعنيفا أحيانا اخرى . وكان التأثير متبادلا . يأتى من الجنوب العربى تارة ومن الحبشة تارة اخرى .

ولازال عبور بوغاز باب المندب مستمرا حتى الوقت الحاضر ويمثل تيار هجرة بشرية مستمرة من قديم . وكان لسكان الجنوب العربى أثر عميق على أكثر من عنصر حضارى فى الجانب الافريقى المقابل ، اذا ما قارنا ذلك بتأثير سكان الأجزاء الوسطى والشمالية من الجزيرة العربية على الأجزاء القريبة من افريقية . ولقد سبقت الاشارة الى أن ما كونه عرب الجنوب من نظام تجارى وعلاقات اقتصادية مع سواحل افريقية يشبه ما كونه الفينيقيون من مراكز وعلاقات فى عالم البحر المتوسط . واقتضى تأمين هذه التجارة تأمين مراكزها الافريقية وطرق القوافل المؤدية اليها والصادرة عنها .

وفى الوقت الذى تدهورت فيه تجارة مصر الخارجية فى البحر الأحمر كان نشاط عرب الجنوب آخذا فى الازدهار (ألندورف : الاثيوبيون ص ٤٨ ـ ط . اكسفورد ١٩٦٠) . وامتد هذا النشاط جنوبا فى المحيط الهندى حتى وصل الى الأجزاء الشمالية من موزمبيق الحالية . ولكن من الطبيعى أن تكون أنظارهم متجهة ـ أول ما تتجه ـ الى اليابس الافريقى القريب .

وإذا ما ألقى العرب مراسيهم فيما هو الآن ثغر مصوع ، او الموانى القريبة منه ، فانهم سيجدون الشاطىء الافريقى قريب الشبه من وطنهم : هنا سيجدون اولا سهلا حارا جافا ضيقا نسبيا يقود الى اقليم جبلى يبلغ منسوبه نحو ألفى متر أو يزيد ، تسقط عليه الرياح الموسمية أمطارا منتظمة لها آثارها على النبات الطبيعي والزراعة والتطور الحضارى .. فهنا بيئة تشبه ما ألفه عرب الجنوب فى بلادهم ، وتدعوهم الى صعود الهضبة حيث المجال أوسع لتجارتهم والمناخ أفضل ما يستطيعون الحياة فيه ، وهناك ثروة طبيعية ، ونشاط بشرى يعطى انتاجا أوفر من الطيب والصمغ والعاج . ولاشك فى أن جو الصيف فى السهل الساحلى مرهق يجعل صعود الجبال أمرا محببا .. ما استطاع الانسان اليه سبيلا . ولازال الشاطىء الافريقى يحمل أسماء من الجنوب العربى فى مناطق مصوع وعصب وما وراءها فى الداخل . وأرجو أن أخصص لهذا الموضوع — كما وعدت — مقالا أو أكثر . والتأثير الحضارى لم يقتصر على مجرد اطلاق الاسماء على المدن أو الانهار أو الأخوار ، وانما اثر على طرائق متعددة من الحياة تتضافر معالمها على تاكيد الروابط الحضارية بين ساحلى البحر الاحمر .

وإذا ما استقر هؤلاء الوافدون على الهضبة ، أصبحوا من أهلها ، وخالطوا من سبقهم اليها من الكوشيين ، ونشأ من هذا التفاعل نمط حضارى له ملامحه الاجتماعية والسياسية والثقافية ، المتأثرة بما كان فى الوطن الأول : الجنوب العربى . فهؤلاء المهاجرون كانوا حملة حضارة راقية رقيا كبيرا من نواحيها المادية والثقافية (الندروف : المرجع السابق ص ٤٩) .. فهم الذين ادخلوا الجمل الى افريقية وزرعوا أشجار البخور فى جبال الحبشة وغيرها من الغلات ، كما أدخلوا طرزا جديدة فى المبانى أفضل مما كان هناك . ولاشك فى أن الأثر الحضارى — وبخاصة فى اللغة — كان أقوى من أى اثر آخر تركه عرب الجنوب فى الجانب الافريقى ...

وانعكس أثر الخصائص الجغرافية للجنوب العربى على الشاطىء الافريقى .. ففى الجنوب العربى تتعدد الظاهرات الطبيعية : المدرجات ، التلال ، الجبال ، الأمطار الموسمية ، الغنى النباتى ، المناخ المعتدل ، الزراعة المستقرة ، المراكز الحضرية ، امكانيات الاستقرار والتجارة مع الخارج ... وكانت الحوافز الطبيعية داعية الى نشاط بشرى وتقدم حضارى تعددت مظاهره المادية والثقافية ، وظهرت فى نظم الرى وقوانين الملكية والنشاط المعمارى والثروة الحيوانية والزراعية ..

وإذا كان الجنوب العربى قد شاهد قيام أكثر من دولة — تزامنت أو تعاقبت — فانه قد شاهد فى فترة دولة جمعت الجنوب العربى تحت سلطان واحد فى القرن الثالث الميلادى . وكان هذا الوضع قصير المدى واستمر حتى القرن السادس عندما غزت مملكة اكسوم اليمن واخضعته... ولكن هذه قصة أخرى، يعنينا منها الآن أن المؤثرات كانت متبادلة بين الشاطئين ، وان كانت المؤثرات الوافدة من الجنوب العربى أقدم وأكثر تنوعا من الناحية الحضارية . وهذه الهجرة المرتدة من أكسوم الى اليمن تمثل مرحلة لاحقة للمؤثرات الوافدة من الجنوب العربى والتى كان من آثارها توفير المقومات الحضارية لقيام مملكة أكسوم نفسها .

فالقرون القليلة السابقة لقيام الاسلام شاهدت غليانا سياسيا فى الجنوب العربى تعددت أطرافه ، دخل فيه الروم والفرس والأحباش فضلا عن أبناء البلاد من الحميريين الذين قاوموا القوى الغازية وسعوا الى استقلال بلادهم .

والذى يهمنا تاكيده هو أن قيام مملكة اكسوم كان راجعا الى حد كبير — ان لم يكن راجعا تماما — الى مؤثرات حضارية أتت من الجنوب العربى .

وقد حدث خلاف بين الباحثين حول طبيعة الهجرة من الجنوب العربى الى الشاطىء الافريقى المقابل : هل كانت على صورة هجرات جماعية أم كانت هجرات أفراد وأسر .. وهو ما يرجحه روسينى فى دراساته المستفيضة عن الحبشة . فهو يرى أن هذه الهجرات لم تكن ضخمة من الناحية العددية ، ولكنها كانت راقية فى مستواها الحضارى وأنها أحدثت ثورة حضارية فى مرتفعات الحبشة وأنها نفخت فى العنصر الكوشى مكونات سامية استطاعت أن تعطى الحضارة الاثيوبية طابعها المميز على مر العصور (الندروف ص ٥١) . فالمسلات والكتابات والمدن وأماكن العبادة ... كلها شواهد حية على ما استطاعت

مؤثرات الجنوب العربى ان تقيمه فوق أرض افريقية ·

وكانت هذه المؤثرات مركزة فى منطقتين أساسيتين : منطقة أكلى جوزاى الشرقية ومنطقة أكسوم وعلى هذا يتكون الاثيوبيون من سبيكة بشرية جزء منها جاء من الجنوب العربى محدود ـ نسبيا من الناحية العددية ، متفوق من الناحية الحضارية ، والجزء الاكبر منها من العنصر الكوشى القديم ·

ولكن : من أين جاء العنصر الكوشى القديم ؟ هل هو بدوره يمثل هجرة بشرية قديمة من الجنوب العربى ؟ أم أنه افريقى قديم ·

اننا لو تعمقنا هذا البحث لوصل بنا الى أغوار من تاريخ الانسان يتكاثف فيها الغموض بحيث لا يكاد يتيح للباحث الا أقل قدر من اليقين · ويقودنا الى بحث الموطن الأصلى للانسان : هل كان فى جنوب غرب آسيا أم كان فى شرق افريقية ؟ ولكل من النظريتين من يؤيدها ويلتمس الأدلة لترجيحها ، واذا كانت النظرية الآسيوية أقدم ، فان النظرية الافريقية تحاول فى السنوات الأخيرة أن تجد لها أرضا ثابتة نتيجة للكشوف التى أمكن العثور عليها فى شرق افريقية ·

ولن تغير هذه الأبحاث من قوة التفاعل بين ساحلى البحر الأحمر ولا من تأثير الجنوب العربى على تطور الحياة فى الجانب الافريقى المقابل · وهو تأثير لازالت ملامحه بارزة حتى الوقت الحاضر ·· واذا كان هؤلاء الآباء الوافدون من الجنوب العربى قد فقدوا وحدتهم السلالية (الاثنوجرافية) فان تأثيرهم على حياة الاقليم سياسيا واجتماعيا وثقافيا قد أصبح تراثا لسكانه وقوة دافعة ، فى تاريخه وتطوره · وهو تأثير يمكن رده ـ على الأقل ـ الى القرن السابع قبل الميلاد ، وظل يتفاعل حتى استطاع أن يبلغ ذروته فى تكوين مملكة أكسوم ثم بدأت الموجة تعود مرة أخرى الى الجنوب العربى ثم تتابعت بعد هذا موجات من المد والجزر السياسى · وهى فى تعاقبها وتدافعها وارتفاعها لا تستطيع أن تخفى حقيقة كبيرة وهى الأثر الحضارى العميق الذى تركه الجنوب العربى فى الشاطىء الافريقى المقابل ·

(البحث موصول)

د · عبد العزيز كامل

من رباعيات التونسى

فى عالم المرأة

للشاعر : محمد خليفة التونسى

١ ـ المرأة والحياة :

اخشى زمانا أرانى فيه منقبضا
عن حبهن ولو جاوزت تسعينا
مازهدهن سوى زهد الحياة ، ومن
تزهده ينبذ ، ولو كان ابن عشرينا
والعود للزهر ما اخضرت منابته
وللحريق وقودا حين يلوينا
والموت أكرم بالانسان ، ان زهدت
فيه الحياة ، فجافاها ، ولو حينا

٢ ـ الزوجة الصالحة :

خير ما أحرز الفتى زوجة تر
عى حماه كأنه فى الغوانى
جنة العمر هذه ، من يحزها
يتملك شتى مزايا الجنان
لا تطيب الدنيا بصيت ، ولا جا
ه ، ولا ثروة ، ولا سلطان
انما تجمل الحياة لزوجيـ
ـن ، بحب قلباهما يخفقان

٣ ـ نحن وهن :

كيف الحياة مع النساء ، أو الحياة بغيرهنه
لا ويل يعدل لؤمهن ، ولا نعيم كجودهنه
فاذا جفون أرين فى الدنيا الجحيم لصحبهنه
واذا عطفن أرينهم فيها الجنان بسحرهنه
وجفاؤهن كعطفهن وساوس من عفوهنه
فلقد يفين لخصمهن ولا يفين لأهلهنه
ولقد يخن نفوسهن وولدهن لجهلهنه
يا ويلتا من قربهن وويلتا من بعدهنه

٤ ـ النساء ظاهرا وباطنا :

ألف زى لهن ، بل ألف ألف
فى كساء وزينة وكلام
والخفايا بعض قريب لبعض
رغم شتى الأشكال والأحجام
هن ـ معنى ـ كأنهن شقيقا
ت تؤام فى جوهر وقوام
تلك ـ يا صاح ـ عبقرية حوا
ء حبته البنات فى الأرحام

أتكون الطفولة ذروة الكمال الإنسانى ؟

بقلم : أحمد حسين

كلما تأملت الطفولة وخصائصها ، تأكد لدى ان عظماء العالم وقادته فى كل فرع من فروع الحياة ، هم الذين استطاعوا ان يحتفظوا فى انفسهم بجوهر الطفولة وان يقاوموا اثر البيئة والتربية والتعليم فى انفسهم ، وبذلك فقط تهيأ لهم ان يصبحوا ابطالا وفلاسفة وعلماء وفنانين او انبياء وقديسين .

انها لتكاد تكون قاعدة عامة انه لم ينتصر ولا ينتصر فى معركة الحياة الا الذين قادتهم احلام الطفولة طوال حياتهم اما الذين انهزموا فى معركة الحياة ، فاصبحوا نكرات وامعات فهم الذين ارتفعوا فوق احلام طفولتهم ودخلوا الى دنيا الرجولة، دنيا العقل والتفكير والاخلاد للواقع .

الطفل الشاعر والفنان :

ان الاجماع منعقد بين رجال التربية — وهى مسألة يستطيع كل انسان ان يتثبت منها بنفسه — ان قوة الخيال الانسانى تصل فى ذروتها عند الطفل، ويتمثل ذلك اعظم ما يتمثل فى اضفائه الحياة على كل ما يحيط به ، فالطفلة عند ما تلعب بدميتها لا تتصور الا انها تنبض بالحياة مثلها ، فهى تأكل وهى تلعب وهى تنام وهى تخطىء وتصيب .

والطفل عندما يركب عصاه فانه لا يتصور الا انه يركب حصانه بالفعل او سيارة او طيارة ، حسب ما يحلو له ، وعندما يلوح بعصاه فوق رأسه فانما هو فى نظره السيف الذى يقطع به رقاب الاعداء من مردة وشياطين وغيلان .

وعند ما يسقط الطفل على الارض ويروح يبكى من الم السقوط فان ضرب الارض وزجرها ونعتها بأخس الصفات كفيل بأن يذهب عنه الألم لأنها عوقبت ، فكل ما حول الطفل حى نابض بالحياة ، وقابل للاتصال به عن طريق الكلام ، فالحيوانات والحشرات والزهور والاشجار والقمر والشمس وكل ما فى الكون من كائنات منظورة وغير منظورة من جن وملائكة وسحرة وعفاريت ، حى فيه متحدث كله . تلك هى دنيا الطفل وحياته ومهمة البيئة ابتداء من الأم والأب والأخوات ، والمعلم فى الكتاب والمدرس فى المدرسة ، أن يبصر الطفل بزيف تصوراته وانها أوهام وخيالات لا تتصل بالواقع ، الواقع الصلب الجامد ، الذى يجعل العصا عصا ولا يمكن ان تكون حصانا ، والذى ينكر ان تتكلم الأوزة أو الدبة أو القطة وان تكون لها عواطف كعواطفنا ، والتى تجعل الارض والسماء والجبال جمادا أخرس لا يحس ولا يشعر . ويستجيب الطفل لهذا التلقين ، ويدرك واقع الحياة بكل مرارته ،وبكل درنه وكدره ، بكل آلامه وشروره ، فاذا وصل الى هذه الدرجة فقد خرج من دنيا الأطفال ، ودخل دنيا الكبار ، دنيا الفكر والمنطق والحساب والتجربة .

ويطلع علينا موكب الشعراء الخالدين فى كل زمان ومكان ، فاذا هم لا يختلفون عن سائر البشر الا بمقدار ما يتصرفون كما يتصرف الاطفال عندما يضفون الحياة على كل ما يحيط بهم ، فيخاطبون الريح والليل والنهار — والانهار والاشجار والحمامة والكروان ، والقط والتمساح ، واذا — هم لايعترفون بمنطق او رياضيات وانما هى سبحات فى دنيا الخيال ، وكلما أوغلوا فى دنيا الأطفال فحدثونا بدورهم عن الجن والعفاريت والملائكة والشياطين،

وعن حور البحر وبساط الريح ، واسمعونا أناتهم وصراخهم وعويلهم على ما فات او ضاع منهم ٠٠ ازددنا اقبالا على اشـــعارهم ، وازددنا حبا لهـــم ورفعناهم مكانا عليا ٠

فاذا اردنا ان نتقصى الاسباب التى جعلت من الشاعر شاعرا لم نجد امامنا الا سببا واحدا وعلة واحدة ، وهى انه تمرد على البيئة ، تمرد على ماكان ابواه ومدرسوه يعدونه له من ان يتلقى تعليمايجعل منه معلما أو مهندسا أو طبيبا أو تاجرا ناجحـــا وانه ابى الا ان يواصل احلام طفولته ، وان يعيش مع الخيالات والاوهام، وان يطلق لعواطفه ومشاعره العنان ، فلا يضع عليها قيدا من قيود المجتمع ،ولا يحفل بالتقاليد او العادات والآداب ٠

وكذلك الشأن بالنسبة لأى فنان رساما كان او موسيقارا أو ممثلا أو مغنيا ، فهو لا يصل الى الذروة من فنه الا اذا كان كالشاعر فى قوة الخيـــال ، وفى اطلاق العواطف والمشاعر فى غير تحرز أو تأثم ، والعجب ان المجتمع يرضى من الفنانين والشعراء ما لا يرضاه من غيرهم ، ادراكا منه انه لا فن الا حيث التحرر والانطـلاق من كـل قيد ، ومن كـل فـكر واستغراق فى الخيال والاوهام والمشـاعر المتدفقـة وهى كلها سمات الطفولة وخصائصها ٠

الطفل المخترع :

وليس هناك ما يزعج كل أب من طفله أكثـر من ان يراه يحطم اللعب الثمينة التى تقدم له ،وقديهون الامر بالنسبة للدمى واللعب ولكن الذى يملأ كل أم بالفزع انهـا لو تركت طفلها وشـأنه فى البيت لعبث بكل شيء ودمر وضرب وأتلف ، وربما اساءت نتيجة ذلك الى نفسه ٠

ويقول لنا علماء التربية ان الطفل اذ يحطم كـل شيء ويفسـد كل شيء فليس ذلك الا لاشباع نهمه فى معرفة السر الكامن وراء الأشياء : ما الذى يحرك اللعبة ويجعلها تفعل ماتفعل ، ما الذى يجعل الراديو يغنى ويتكلم ؟ لا بد اذن من البحث عن المتكلم داخل هذا الصندوق الخشبى بتكسيره وتفكيكه ٠ ومهمة الابوين أن يعملا بالتدريج على تعطيل هذه الملكة ٠ (المخربة) فى نظرهما وان يعوداه بالتدريج ان يقبل الاشياء على علاتها ، وان يستمتع بآثارها دون ان يحاول ادراك كنهها ٠وينتهى الحال بالطفل الى الاذعان فلا يعود يبحث خلف الأشياء وكيف تعمل وما هو سر تركيبها ، وبذلك يصبح ولدا عاقلا رشيدا واقعيا٠

وكما طالعنا موكب الشعراء العظام والفنانين من قبل ، يطالعنا موكب المخترعين العظام فى كل زمان ومكان ، هؤلاء الذين صنعوا لنا كل ما نحيا فيه وبه من مهمات وآلات وادوات،ونحاول من جديد ان ندرك السر الذى جعل هذا النفر من البشر يشـــذون عن القاعدة ويخترعون لنا هذه الاختراعات المـــذهلة ، فنرى السر كامنا فى احتفاظهم بهذه الخصيصة الاولى من خصائص الطفولة ، وهى عدم قبولهـــم اى شيء على علاته ومحاولتهم الدائمة معرفة السر الكامن وراء الاشياء ٠٠ فالمخترعون هم هؤلاء الاطفـــال الذين رفضوا كل ما حاول الآباء والمدرسون والعلماء ان يفرضوه عليهم ، وتمردوا على المســـلمات العلمية والبديهيات والحقائق الجاهزة،بل رفضوا ان ينصاعوا لنتائج المنطق الصارم والرياضيات وسمحوا لخيالهم ان يسبح بهم فى دنيا من التحرر والانطلاق ، فاذا بهم يحققون للدنيا هذه السيارة وهـــذه الطيارة ، وهذا المصباح الكهربائى ، وهذا القلم الذى اكتب به والورق الذى اكتب عليه ، وهذه الســـينما التى يختلف الناس اليها ، وسفن الفضاء التى تدور الآن حول الكرة الارضية ، ليخرج منها الانسان ويسير فى الهواء وسط ذهول البشر ٠ وليس ذلك كله الا من نتاج هذه العقول التى احتفظت باحلام الطفولة ، وتمردت على الواقع بقوانينه وحقائقه المزعومة ٠

الطفل الفيلسوف :

وما من اب وام الا وقد ضاقا ذرعا باسئلة طفلهما التى تنهال عليهما اول مايفتح ذهنه ويسعفه لسانه على المنطق « لماذا وكيف » او بلغة الطفـــل « ليــه وازاى »

لماذا نأكل ؟ لماذا نشرب ؟ لماذا نبكى ؟ لمـــاذا نموت ؟ لماذا نولد ؟ وكيف نولد ، وكيف نموت ، وكيف نبكى او نضحك ؟ وقد يكون الابوان طويلى البال واسعى الصدر فيحاولان أن يردا على اسئلة طفلهما قدر الاستطاعة الا ان يصدما ذات يـــوم بالطفل يتساءل من الذى خلق الناس والدنيـــا ، فيسرعان فى الرد وعلى شفاهما ابتسامة الرضا أنهما سيلقنان ابنهما اول درس فى الدين فيقـــولان له

« الله » ، ولكن الطفل العنيد يمضى فى سؤاله « ومن الذى خلق الله » وتختلف ردود الفعل عند الآباء او المعلمين والمدرسين عندما يلقى الطفل عليهم هـذا السؤال المحرج فيردون عليه أحيانا بالضرب ، وتارة بالزجر ، وفى اكثر الاحيان بالابتسام والتهرب ، او برد لا يشفى غليل الطفل · فيظل السؤال حائرا بغير جواب ·

ويجيء موكب الخالدين من الفلاسفة والمفكرين منذ اقدم العصور ، فاذا هم لا يشغلون بشيء الا بهذين السؤالين اللذين نتبرم بهما اذا صدرا من اى طفل وهما : لماذا وكيف، ويصعدون في سلم الأسئلةحيث صعد الطفل فيتساءلون عن كيفية خلق الكون، فيقول بعضهم الله ، ويقول بعض آخر انما هى الطبيعة او المادة ، فيلح العقل بالسؤال ، ومن الذى خلق المادة او الطبيعة ، ويقف أعتى الفلاسفة عاجزين عن ان يردوا على هذا السؤال ، الا بالتسليم والاستسلام وان العقل البشرى اعجز من ان يحل هذه القضية ، وهكذا ينتهى اعظم الفلاسفة ، بما انتهى اليه الطفل، وهو مجرد السؤال الحائر الذى لا يجد له جوابا ·

الطفل الانسان :

وينشأ الطفل لا يعرف من امر نفسـه الا انه انسان كأى انسان آخر فاى طفل اهل لصحبته واخوته ومحبته ، وليس هناك ما يحـول دون ان يشاطر اى طفل آخر ما يملكه وان يلعب معه ويأكل معه ، ولا يرى الطفل في سواد لون اى طفل آخر او صفرته أو حمرته ما يفرق بينهما ، بل لا يمكن ان يحس بأى فارق آخر من حيث الغنى او الجاه او الرفعة والانخفاض ، انه طفل وذاك طفل آخر ، وكل منهما ابن الحياة ، وكل يحب اللعب والمرح والحياة مع الآخرين وتبدأ الام ويبدأ الاب والمعلم والمدرس فى تلقين الطفل أى طفل الفوارق التى تفصل بينه وبين الآخرين ، فهذا زنجى وهذا هندى ، وهذا ابن الخادم وهذا ابن السيد ، وهذا ابن الغنى وهذا ابن الفقير، وهؤلاء هم فقط من يصح ان يلعب معهم وان يختلط بهم ، أما هؤلاء فلا يصح له ، ويجب عليه فى كل الاحوال الا يعطى نقوده او لعبه او شيئا من حوائجه للآخرين ، وان يتجنب هذا الطفل أو ذاك ··· لئلا يضربه او يؤذيه او يسرقه ···

ويتعلم الطفل وينمو ويكبر فيترفع عن الآخرين اذا كان من السادة ويذل للآخـرين اذا كـان من الضعفاء ، ويتعلم كيف يحرص على حـوائجه وعلى نقوده وحلواه فيضن بها على الآخرين ، ويتعلم كيف يزاحم وكيف يضارب وكيف يحارب وكيف يحقد وينتقم ، وكيف يعتدى وكيف يعامل ·

ويبلغ الاطفال سن الرشد ، وعلامة رشدهم انهم اذا لعبوا قسموا انفسهم الى حرامية وضباط ، والى اغنياء وفقراء ، والى سادة وعبيـد والى منتصرين ومنهزمين ··· ويطرب الآباء لادراك أبنائهم الرشد بأنهم خلفوا دنيا الطفولة باوهامها وبداوا يدركون الحياة بواقعها وبذلك دخلوا دنيا الكبار ··· دنيا الرجال الراشدين وتأتى قافلة الأنبياء والرسل والهداة والمصلحين ، اولئك الذين كانوا على مر العصور نورا لبنى الانسان ، يدعون للاخوة البشرية والتراحـم والتعاطف بين بنى الانسـان ، ويدعون للمحبة وللسلام · وتنحنى البشرية تمجيدا لهذا النفر من الاعلام ، باعتبارهم يؤلفون المثل الاعلى لبنى الانسان، وتسأل عن السر الذى وصل بهؤلاء الى هذا المكان الرفيع من تكريم البشرية ، فلا ترى الا انهم دعوا الى هذه الفطرة الاولى ، فطرة الطفل البرىء الذى يحب كل من حوله ، ولا يضمر لأحد حقدا ولا يعرف الشر ، وينسى الاساءة ، ويسعده أن يكون مصدر اسعاد لكل الكائنات ·

ارتداد الانسان بعد الشيخوخة الى الطفولة :

واذا كان العقل والمنطق والحكمة والفكـر هى مفخرة الرجولة وما تزهو به على دنيا الطفولة ، فان الرجولة تمضى فى كمالها ونموها حتى تصـل الى الشيخوخة، ـ فاذا بالرجل يرتد من جديد طفلا واذا بدنيا العقل تتخلى من جديد عن مكانها الى دنيـا الاحاسيس والمشاعر الساذجةوالخيالاتوالاوهام واذا بالطفل يرى فى الشيخ ندا له ، والشيـخ يرى فى الطفل صاحبا يرتاح الى صحبته ، وهكذا يعود الانسان الى حيث بدأ وعندما تمتزج البداية بالنهاية فهذا هو الحق الذى لاحق غيره ·

الكمال الانسانى :

وهكذا كلما قلبنا الامور ونظرنا اليهـا من اى زاوية اردناها ، وجدنا الطفولة مستودع الكمالات الانسانية فى شتى مناشطها الروحية او الفكـرية او المادية ، وان الطفل اى طفل يولد وهو مجهـز بكل الكمالات الانسانية ، والبيئة وحدها هى التى تنحرف بهذه الكمالات وتحولها فى الأغلب والأعم

الى احاسيس بالنقص والعجز والرضا بالواقع المر الاليم الذليل ٠

وان البشر اذا كانوا يجدون فى كل زمان ومكان من يتولى هدايتهم وارشادهم الى الطريق المستقيم ومن يصلح احوالهم ويشبع نفوسهم،ويزكى ارواحهم فقد حدث ذلك على أيدى هذا النفر الذى ظل طفلا فى رجولته ، بكل براءة الطفولة واحلام الطفولة وعواطفها ومشاعرها ٠

كل طفل يولد على الفطرة :

ولعل هذا الذى قدمناه يفسر لنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه » والفطرة تعنى فى هذا الحديث الدين الاسلامى الحنيف او الدين الكامل الذى ينطوى على جوهر الاديان كلها٠

« فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله »

كما يفسر لنا قولة السيد المسيح عليه السلام :

« لقد اخفيت يارب حكمتك عن العقلاء وكشفتها للاطفال » ٠

وقوله عند ما ساله تلامذته « من الاعظم فى ملكوت السموات ؟ » : الحق أقول لكم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الصبيان فلن تدخلوا ملكوت السموات ، ان من يضع نفسه مثل هذا الصبى فذاك العظيم فى ملكوت السموات »

ويفسر لنا لماذا دأب الفنانون على تصور الملائكة أطفالا أصحاب أجنحة ؟ ولماذا يجرى على السنة الناس فى كل عصر وزمان ومكان ان الاطفال ملائكة ؟

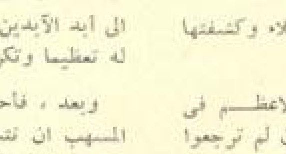
الانسانية الاولى :

ولست اجد ما اختم به هذا البحث الا ان اسجل ملاحظة ابن صديق لى عند ما عرضت عليه فكرة هذا البحث ، اذ قال لى على الفور ، ولكن مؤدى هذا البحث ، ان الانسانية فى اول مراحلها ، وهى ما اعتدنا ان نعتبرها طفولة الانسانية ، تكون أكمل من انسانية الوقت الحاضر التى تعتبر رشد الانسانية ورجولتها٠٠ووجدتنى أقول له ٠٠ لقد جئتنى بدليل جديد ، فانا من القائلين بان الانسان الأول قد ولد كاملا من حيث قوة الجسد وقوة الذهن وقوة الروح ولقد اثبت هذا بالتفصيل فى كتابى (الطاقة الانسانية) ٠

فاذا كانت الطفولة هى التى تقابل الانسان الأول، فهى الدليل حقا وصدقا على أنها ذروة الكمال الانسانى ، ذلك الذى كان عليه آدم أبو البشر عند ما علمه الله الأسماء كلها ، ماكان وما سوف يكون الى أبد الآبدين ، وعند ما طلب من الملائكة أن تسجد له تعظيما وتكريما ٠

وبعد ، فاحسب ان من حقنا بعد هذا العرض المسهب ان نتساءل فى ختام بحثنا بما بدأنا به ٠ أتكون الطفولة حقا وصدقا هى ذروة الكمال الانسانى ، وكل ماتفعله البيئة والتربية والتعليم هى أن تهبط بهذا الكمال الى حضيض مانسميه فكرا ومنطقا وعلما وتجربة وواقعا ؟

« أحمد حسين »



مصر في موكب العروبة

للدكتور أحمد الحوفي

- ٤ -

جمال عبد الناصر والعروبة

لقد ازداد شعور جمال عبد الناصر منذ كان في الفلوجة بآلام العرب ، وبالمرارة من سيطرة الاستعمار عليهم ، وبالخجل من فرقتهم وضعفهم .

لكن في العرب ملايين شعروا بمثل ما شعر به جمال ، فتألموا من الفرقة ، وخجلوا من الضعف ، واستخزوا من تسلط الاستعمار ، ثم احتبسوا مشاعرهم في صدورهم، أو تناجوا بها ، أو أعلنوها في خطب ومقالات وقصائد ، لم تستطع أن تغير من الواقع الأليم شيئا .

أما جمال فقد اقترنت آلامه بالعمل الحاسم الذي

لا وسيلة الى النجاح سواه .

وهل هناك وسيلة الا الوحدة ، والنظر الى بلاد العرب كلها على أنها الوطن العربي الكبير الذي لا يباح التفريط في جزء من أجزائه ؟.

ومن هنا تبلورت آمال جمال عبد الناصر وأعماله فصار هدفه الأسمى تقويض الاستعمار ، وتحرير الوطن العربي ، والنهوض به نهضة شاملة تحقق له العزة والمجد وشرف الحياة .

وحسبي أن أشير هنا الى قليل من جهوده في مجال العروبة وجهاده الباسل في ايقاظ العرب .

١ ــ ايمانه بالعروبة :

يقول جمال عبد الناصر : « أيقنت أن الاستعمار هو القوة الكبرى التي تفرض على العالم العربي حصارا قاتلا غير مرئي أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذي كان يحيط بخنادقنا في الفالوجة ، وبجيوشنا جميعا ، وبحكوماتنا في العواصم التي كنا نتلقى منها الأوامر .

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق في نفسي أومن بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسي : اذا كانت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحدا ، والعدو واحدا مهما يحاول أن يضع على وجهه من الأقنعة المختلفة ، فلماذا تتشتت جهودنا ؟ ثم زادتني تجربة ما بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ايمانا بهذا الكفاح الواحد وضرورته .

وأعترف أني بدأت كذلك أرى العقبات الكبار التي تسد الطريق الى الكفاح الواحد ، ولكني بدأت أومن بأن هذه العقبات نفسها ينبغي أن تزول ، لأنها من صنع ذلك العدو نفسه .

واستبشر بأن المستقبل سيشهد صورا جديدة من تعاون مصر والبلاد العربية ، تؤكد للعالم ميلاد قوة جديدة في هذه الرقعة الهامة من العالم .

ورأى أنه ليس من الممكن أن نتجاهل الدائرة العربية التي تحيط بنا ، لأنها منا ، ونحن منها ، امتزج تاريخها بتاريخنا ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا ، وليس مجرد كلام .

، وما من شك في أن الدائرة العربية أهم الدوائر من حولنا ، وأوثقها ارتباطا بنا .

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ ، وعانينا معا المحن المشتركة ، وعشنا في أزمات واحدة، ولما وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت السنابك نفسها، وامتزج العرب معنا بالدين والجوار .

وأذكر أن طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل الى تفكيري، وأنا طالب في المدرسة الثانوية ، اذ خرجت مع زملائي في اضراب عام في الثاني من شهر ديسمبر

من كل سنة ، احتجاجا على وعد بلفور الذى منحته بريطانيا اليهود ، ووعدتهم فيه بوطن قومى فى فلسطين ، اغتصبته ظلما من أصحابه الشرعيين » .

ويقول :

« ولست اشك فى أن كفاحنا الواحد يعود علينا وعلى شعوبنا بكل الذى نريده لها ونتمناه .

ولست أشك فى أننا أقوياء، ولكن الكارثة الكبرى اننا لا ندرك مدى قوتنا .

وهناك ثلاثة مصادر بارزة من مصادر قوتنا يجب ان تكون أول ما يدخل فى الجواب .

اولها : اننا مجموعة من الشعوب المتجاورة المترابطة بكل رباط مادى أو معنوى ، يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب ، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت فى جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة .

اما المصدر الثانى : فهو أرضنا نفسها ، ومكانها على خريطة العالم ، وموقعها الاستراتيجى العام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

والمصدر الثالث : البترول الذى يعتبر بحق عصب الحضارة المادية ، والذى بدونه تستحيل كل أدواتها - من مصانع كبيرة لكافة أنواع الانتاج ، ومن وسائل المواصلات فى البر والبحر والجو ، ومن أسلحة للحرب - قطعا من الحديد يعلوها الصدأ ، لا تنبعث منها حركة أو حياة » .

ثم قال فى الميثاق : « لقد قسمت البلاد العربية بين الدول الاستعمارية وفق مطامعها ، بل وفق نزواتها واخترع ساسة الاستعمار كلمات لتغطية الجريمة التى أقدموا عليها ، مثل الانتداب والوصاية .

ان قطعة من الأرض العربية فى فلسطين قد أعطيت من غير سند من الطبيعة أو التاريخ لحركة عنصرية عدوانية ، أرادها المستعمر تكون سوطا فى يده يلهب به ظهر النضال العربى ، كما أرادها المستعمر فاصلا يعوق امتداد الأرض العربية ويحجز المشرق عن المغرب .

ثم أرادها عملية امتصاص مستمر للجهد الذاتى للأمة العربية تشغلها عن حركة البناء الايجابى .

ان الأمة العربية قد خرجت من محنة فلسطين باصرار عميق على كراهية الاستعمار وعلى هزيمته ، لأنه ليس امتصاصا لموارد الشعوب فحسب ، بل هو عدوان على كرامتها وعلى كبريائها » .

وانه ليبشر بتحقيق الوحدة العربية فى قوله بالميثاق :

« يكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل .

ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التى تصنع وحدة الضمير والوجدان .

ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التى تصنع وحدة المستقبل والمصير .

ان الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية مستدلين بقيام خلافات بين الحكومات ينظرون الى الأمور نظرة سطحية ، لأن هذه الخلافات تنبع من الصراع الاجتماعى فى الواقع العربى .

ان الوحدة لا يمكن ، بل لا ينبغى أن تكون فرضا، فان الأهداف العظيمة للأمم يجب ان تتكافأ أساليبها شرفا مع غاياتها .

ان جهودا عظيمة وواعية يجب أن تتجه الى التغلب على بقايا التشتت الفكرى الذى أحدثه ضغط ظروف القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وما تركته الدسائس والمناورات من رواسب تحجب الرؤية الصافية فى بعض الظروف .

والجمهورية العربية المتحدة - وهى تؤمن بأنها جزء من الأمة العربية - لا بد لها أن تنقل دعوتها والمبادىء التى تتضمنها ، لتكون تحت تصرف كل مواطن عربى .

وفى هذا المجال تحرص الجمهورية العربية المتحدة على الا تصبح طرفا فى المنازعات الحزبية المحلية فى أى بلد عربى .

واذا كانت تشعر أن واجبها يحتم عليها مساندة كل حركة شعبية وطنية فان هذه المساندة يجب أن تظل فى اطار المبادىء الأساسية » .

وانه ليكرر عقيدته فى أن الوحدة العربية طبيعية وأصيلة وضرورية لا يمكن التهاون فى ارجاعها ورعايتها وصيانتها .

« ان الوحدة العربية ليست دعوة عنصرية ، كما

أنها ليست دعوة جديدة . ان شعوب الأمة العربية جميعها – لأطول فترة فى التاريخ – دولة تمكنت بينها الروابط التى جعلتها كيانا ماديا واحدا ، نتيجة لانضوائها تحت الدولة الواحدة ، وضميرا واحدا نتيجة للتاريخ الواحد الذى عاشته ، وعقلا واحدا نتيجة للغة الواحدة التى تتحدث بها ، وتعبر بها عن أفكارها .

ومن خلال هذا الكيان الواحد ، والضمير الواحد ، والعقل الواحد ، صنعت الوحدة العربية مقوماتها وأصولها .

وحتى بعد أن تمكن الاستعمار والقلة الباحثة عن العروش والاقطاعيات من تقسيم الأرض العربية بالصورة التى نراها الآن ، حتى بعد هذا التقسيم الذى لا تعود أصوله الى أكثر من بضع عشرات من السنين ، ظلت قضية الوحدة العربية أملا ومطلبا لشعوب الأمة العربية .

ولقد أدرك الاستعمار ذلك فحاول أن يزيف على الجماهير مشروعات الوحدة، متعاونامع القوى الرجعية التى ترتبط مصالحها بمصالح الاستعمار ، لكن الشعوب على الرغم من ذلك ظلت حريصة على ولائها للوحدة التى تريدها هى ، لا لوحدة الاستعماريين والرجعيين المضللة » .

واتصلت جهود جمال وتلاحقت فى تقوية الوطن العربى ونصرته ، فنص الدستور فى مادته الأولى على أن الجمهورية العربية المتحدة دولةعربية مستقلة ذات سيادة ، وهى جمهورية ديمقراطية وجزء من الأمة العربية .

٢ – مناصرة الجزائر :

هنالك فى الجزائر هب اخوتنا العرب فى وجه فرنسا الباغية منذ نوفمبر سنة ١٩٥٤ وحملوا أرواحهم على أكفهم ، واسترخصوا حياتهم ودماءهم وأموالهم فى دفاعهم عن ديارهم،ولم تثنهم قلة عددهم، وضعف سلاحهم ، عن مناضلة الجيش الفرنسى المحتل المزود بأحدث الأسلحة وأقواها .

والعجب أن العالم صم عن ندائهم ، فلم تتقدم دولة لتساعد الأحرار على الخلاص من طغيان فرنسا ووحشيتها .

ولم تستطع الدول العربية أن تؤازرهم فى كفاحهم الباسل ، لأنها مشغولة بنفسها ، أو مقيدة بسلاسل استعمار آخر .

لكن الجمهورية العربية المتحدة سارعت الى مؤازرتهم ، ولكن جمال عبد الناصر شاركهم فى جهادهم ، وناصرهم على عدوه وعدوهم . ظاهرهم بالسلاح ، وناصرهم بالمال ، وآزرهم فى المؤتمرات الدولية ، وشد أزرهم بالصحافة والاذاعة وتبصر الرأى العالمى بعدالة قضيتهم .

وحنقت فرنسا على جمال ، فلم يكترث بحنقها ، وعادت مصر فلم تعبأ مصر بعدائها ، واستمر جمال فى مناصرة اخوانه بالجزائر ، ليساعدهم على التحرر، لأنهم عضو فى جسم العروبة لا بد من سلامته كله ، ولا بد من قوته كله .

ثم أراد الله لثورة الجزائر أن تنتصر ، وأن يتحرر الشعب العربى المناضل فى الثالث من يولية سنة ١٩٦١ ، فأسعفته مصر بالمؤازرة والمشورة والخبراء والمال والسلاح .

٣ – مؤازرة العراق :

وآزر العراق فى ثورته على الحكم المطلق فى ١٦ من يوليو سنة ١٩٥٧ مؤازرة الاخ الوفى الغيور .

ولن ينسى التاريخ أنه كان فى يوغسلافيا ،فقطع رحلته ، وعاد ليكون على مقربة من اخوانه الثوار .

ولن ينسى التاريخ أنه منذ علم بثورة العراق أذاع على العالم كله وهومازال فى عرض البحر أنه سيناصر العراق على اى تدخل أجنبى أيا كان مصدره ومظهره .

ولن ينس التاريخ أن البطل العربى سارع الى نجدة الثائرين بالسلاح ، ليحموا ثوراتهم ، ويوطدوا حريتهم .

ثم انتكست الثورة حينا ، وشاء الله أن تسترد قواها فى ٢٨ من فبراير سنة ١٩٦٣ فكانت مصر اول دولة اعترفت بحكومة الثورة الثانية ، وأيدتها بكل جهودها .

٤ – مساندة السودان :

كذلك ساعد على تخليص السودان من ارهاق الاحتلال الانجليزى ، اذ كانت انجلترا تراوغ فى الجلاء عن السودان ، زاعمة أن مصر تريد أن تضمه اليها ، ففوت عليها جمال غرضها ، وأبطل زعمها اذ بادر الى الاتفاق معها على استقلال السودان فى ١١ من فبراير سنة ١٩٥٨ ، ثم اعترف بحكومة الثورة فى السودان فى ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٥٨ فتحرر السودان من اغلال الانجليز ، وصار عضوا حرا فى جسد الامة العربية .

« أحمد الحوفى »

أين الشاعر الموهوب ..؟

للدكتور: عبد الرحمن عثمان

- ٥ -

كانت أبرز السمات فيما قدمنا عن الشاعر الموهوب خاضعة للروح العلمي الذي ساد البحث كله تقريبا ، وكان شفيعنا في ذلك ما يجب أن تكون دائما على ذكر منه ، وهو أن الفنون تحكمها قواعدها وتضبطها قوانينها التي تقوم عليها مستمدة منها نظامها وتآلفها وانسجامها ، فان الفن في أي مظهر من مظاهره ماهو الا تنسيق وتنظيم للصور والاشكال والمشاعر على نمط يجرى على قواعد وقوانين ناجمة من ذات الفن نفسه، ومستنبطة من طبيعته وأسلوبه، ووافدة من الكيان الفني الذي ينزع الى ابتكار نموذج سوى يعتمد على الجدة ، وينشد الجمال والاسر في ابداع يوسم بالتناسق والنظام ، فأما ما يند عن طبيعة الفنون من قواعد وقوانين فهي مجتلبة اجتلابا، وهي لهذا تنبو عند التطبيق عن المجال الذي تراد عليه ، وتبدو غريبة في موضعها حين يقصد بها أن تحكم الفن وتقعد له .

والروح العلمي الذي نراه مسيطرا هنا ، لاينبغي لطبيقه على الاعمال الفنية بدقة ، وفي كل الاحوال ، فهناك حالات تفاجئنا من النبوغ والنضج لا تكاد تخضع خضوعا كاملا لما يراه البحث العلمي من اسباب طبيعية تفجر المواهب والعبقريات ، وتظهرها كما يشاء لها الابداع أن تظهر ، ومجيئها متباعدة في أجيال اثر أجيال لا يشفع لنا حين نتجاهلها ، ولايبيح لنا أن نكتفي في الحديث عنها قائلين : ان ذلك نادر لايلتفت اليه ، وقليل لاينبغي أن يصرفنا عن الكثير المستفيض ، لان ذلك المنطق اذا جاز الأخذ به في القوانين العلمية المنضبطة فانه لا يجوز بداهة في المجالات الفنية التي قد يكون النادر القليل فيها خيرا ألف مرة مما كثر وشاع على الألسنة ، فربما ترجع البدوات في الفن الشعرى مثلا قصائد يحتفل بها شعراء لهم في عالم التأمل والفكر مقام لا يرقى اليه الا الصفوة من المثقفين .

فاذا نحن لم نغفل أمر هؤلاء الملهمين الذين تأبى عليهم فطرتهم وتستعلي بهم ملكاتهم عن الخضوع لما تراه البحوث العلمية في تربية المواهب ، وتفجير النبوغ ، وبعث العبقريات ، استطعنا عندئذ أن نطمئن الى سلامة الاسس الثلاثة التي أرسينا عليها منهجنا في الحديث عن الشاعر الموهوب الذي نترقب ظهوره بيننا .

ولست يائسا من ظهور هذا الشاعر فينا فجأة اليوم أو غدا ، فاليأس معناه تكذيب صريح لما قدمنا في شأن المواهب والنبوغ في الميدان الشعرى حين تتوافر الدوافع الى التفلت من التقليد ، والتمرد على مغريات الوبن والملق ، كما أنني لست متباكيا على الشعر الرصين الذي شاهت صوره في عصرنا ، فالتباكي لا يجمل بمن ينشد الكمال للفن الجميل ، ويتمناه في أروع نماذجه في كل قصيدة يقرؤها جيلنا المعاصر .

ولكيلا أتهم بالتحامل على كثير ممن أحب من

شعرائنا الاصدقاء ، أدع الشواهد القريبة من جيلنا تنطق بالحجة ، وتجهر بالدليل تلو الدليل ، اذ لا تجدي مع الحجة مكابرة ، ولا تنشب أمام الادلة لجاجات وخصومات ، وسوف لا أوغل في الماضي البعيد ملتمسا البرهان والاقناع في شعر الذاهبين من القدماء ، بل اني ساختار فترة قريبة شهدها الشيوخ من جيلنا ، وعاش بعضهم فيها شبانا مما اتاح لهم أن يعوا ما جرى فيها من أحداث كبرى ، وأن يصيخوا الى صوت الشعر وهو يعكس صورها باسلوبه الفريد ، وطريقته الرائعة في وعي ذكي ببواعثها ونتائجها ، سالكا بكل ذلك في تضاعيف النفس العربية ، ومثيرا به أدق مشاعرها وأشدها خفاء ، وهذا النوع من الانفعال بالاحداث الوطنية في الاسلوب الشعري أقوى كثيرا في تأثيره على الوجدان الوطني مما نجده من فوران العناصر الكيماوية حين تتفاعل بالمزج في تجارب العلماء في معاملهم ·

وسيكون أبعد تاريخ نرجع اليه للظفر بهذا هو عام ١٩٠٦ حينما نكل الانجليز بالمواطنين الوادعين في قرية « **دنشواي** » ، ثم نمضي على عجل ملمين بالفجائع التي نزلت بالوطن العربي حتى عام١٩٣١، أو بعده بقليل ·

وخلال هذه الجولة في تاريخنا القريب سنستمع الى الشاعر العربي وهو يعكس الينا وقع الاحداث الوطنية على نفسه ، ومهيجا لشعوره القومي ، واحساسه بالعدوان والبغي في عقر داره، وسنصيخ الى شعر تهز الحانه أفئدتنا ، وتستثير غضبته عزماتنا ، لأن حشود العواطف الحية فيه تعرف طريقها الى قلوبنا ومشاعرنا كما تعرف رقية الساحر طريقها الى امتلاك النفوس ، وقهر الجوارح ، وسلب الارادة الانسانية بتهاويلها التي لا يستعصي على سلطانها شيء ·

وحينما نوازن بين شعر تلك الفترة وبين ما نقرأ من شعرنا المعاصر في تصوير الاحداث الوطنية ، سندرك البون الشاسع الذي يفصل بين شعر وشعر ، ويرفع شعراء على شعراء في موضوع اتحدت بواعثه أو تقاربت ، وسوف تميز أسماعنا ــ دون كلفة ــ ما يشجيها بنغمته الساحرة ، وما يقرعها بصخبه ونشازه ، وبهذا المنهج وحده سنعرف السر الحقيقي في تخلف المواهب ، وقصور الملكات عند كثير من شعرائنا الذين نعقد عليهم الآمال في استحداث أسلوب فني يكون أدنى الى اثارة عواطفنا باشتماله على الأصالة والصدق ·

ــ ١ ــ

نصب الانجليز المشانق في قرية دنشواي الهادئة المطمئنة عام ١٩٠٦ ، وكان من قصدهم ان تكون الدرس الرادع لكل مصري تحدثه نفسه بأن يرفع هامته في وجه جنود الاحتلال الذين يعبثون بالارواح والاموال في غير مبالاة وفي كثير من الاستخفاف بالرعية والحاكمين على السواء ، وقد كان لهذه القسوة البربرية أثرها العميق فيما نجم عنها من نتائج سياسية وشعورية ، اذ كانت بمثابة مأتم للحرية تخطت أحزانه حدود مصر والعالم العربي الى عواصم العالم كله ، فعرفت الشعوب امتهان انجلترا للنفوس الانسانية ، واراقتها للدم البريء في سبيل اقرار سلطانها والابقاء على هيبتها في وادي النيل ، وكان فيمن جهر بذلك وندد به الكاتب الانجليزي الايرلندي المشهور « برنارد شو » ·

وقد انفعل بهذا الحادث المروع كبار الادباء حينذاك، كما سارع الى تسجيله الشاعران العربيان: حافظ ابراهيم وأحمد شوقي ، فأما حافظ فقد لمس الجرح في أكثر من مناسبة ، وأما شوقي فقد عز عليه الا يشارك الامة في مصابها ، فنظم قصيدته المشهورة بعد عام ·· !! حين تغيرت الاوضاع فأحس بالامن على ما هو معروف مشهور ·

ولست متخذا من مجرد تسجيل الشاعرين لفظائع دنشواي دليلا على التفوق والافضلية، فالشعر المعاصر نهض بتصوير نكبة فلسطين ، والعدوان الثلاثي الغادر ، كما أكثر في الحديث عن سماحة النظام الاشتراكي وعدالته ، ولكن الذي أقصد اليه هنا هو التأثير الذي نحس به حين نقرأ لشاعري مصر الكبيرين في تلك المناسبة الوطنية التي لا يمكن أن

تقاس أهوالها على ما فيها من بشاعة بالاهوال التي أعقبتها في نفوسنا نكبة فلسطين ·

***

ولشعرائنا المعاصرين أن يطمئنوا كل الاطمئنان الى أنني سوف لا أمنح شعراء أوائل هذا القرن «**عين الرضا**» فأتغاضى عن عيوب لصقت بأشعارهم ، وبخاصة فيما نظم حافظ وشوقي حول مأساة دنشواي ، فلست ـ والحمد لله ـ ممن يمجدون كل سابق لسبق زمانه ، ويناوشون الناشيء المحدث ذهابا مع من يقول : ان زامر الحي لا يطرب ، وانما هي الموهبة الشاعرة تطالعني حينا بعد حين عند حافظ وشوقي ، على حين أنها تسدل نقابا على محياها في شعر كثير ممن نعاصرهم ونقرأ لهم ·

ومع ذلك ، فلن يستفيد الشعر المعاصر شيئا حين أزعم للقراء أنني غير حفي بما نظم حافظ وشوقي في فجائع دنشواي ، فهو عندي دون ما أقرأ لشوقي من روائع تخلب اللب وتسمو بالروح ، ودون ما أجده لحافظ من فخامة وحسن سبك ، فقد خالط شعورهما وجل من المستعمر جنح بهما الى حيطة شديدة نعرفها لشوقي طوال حياته ، ولا نعرف مبرراتها عند حافظ ابراهيم قبل استقراره في الوظيفة عام ١٩١١ ·

ولا نكاد نجد لديهما الا بعض أبيات يجيش فيها الشعور الوطني الجريح ، فأما ماسوى ذلك فلا يعدو ان يكون رصف عبارات مذعورة صيغت في ظلال الخوف ، وامسك زمامها الاضطراب والحذر ، ولكن على ما بها من فتور عاطفي ، وفزع يخالط المشاعر والاحاسيس تجدها تفوق شعرنا المعاصر ، وتبزه في مجال الموازنة والتفضيل ·

وندع تفصيل ذلك الى مقال آخر ·

«د · عبد الرحمن عثمان»

الهوى السحري

للشاعر : حسن عبدالله القرشي

عيشي باجواء الهوى السحري ... وتفجري نهرا على صدري !
وتنفسي عطرا على كبدي ... أفديه بالصبوات من عمري
وترفرفي لحنا ربيعيا ... فيه حكايات الهوى تسري !
انا منهل الاشواق يا املي ... نبع الهوى بقيائري يجري
قد عشت حبا للورى ومنى ... تغذو صباك وسائل شعري
ولقد كتمت الشوق اجمعه ... حتى بدوت فعقني صبري
وتارجحت في خاطري صور ... وانشق عن ليل سنافجري
فاذا رايت بخافقي لهفا ... وخشيت يكشف للورى سري !
واذا شهدت بناظري ولها ... أو غيرة من حيث لا ادري !
فتذكري اني فتى خلقت ... خلجاته للحب والطهر !
حاشاك خذلان الهوى فدعي ... هذا الرماد يطير عن جمري !!

لهجة جديدة

ولكن بأجهزة فكرية جديدة

بقلم: محمد السوادى

لم يكن فى نيتى ـ فى هذا الأسبوع بالذات ـ أن اتابع الموضوع الذى أثرته فى العدد السابق ، بعد ان التقطت الخيط من كلمات أربع ٠٠ وردت فى مقال ممتع ٠٠ للأخ الزميل الأستاذ عبده بدوى حول « **اعادة الثقة بالحضارة الاسلامية** » ٠

ولكن يبدو أن الزميل ـ كفنان ـ تفرغ لفن الاثارة فاحسنه ٠٠ واثبت انه يستطيع ان يلقى أحجارا على اى سطح ساكن فيحركه ٠٠ او أن يحدث تيارا فى اى ماء آسن فيجريه ٠٠ ولقد استطاع فعلا أن يثير فزعى من التكتلات القاهرية ٠٠ التى عرض لها وهو ينقل الينا بعض ما جرى فى المهرجان الثقافى الذى دعا الى عقده فى المنصورة محافظ الدقهلية المثقف ٠

ولم يثر فزعى من التكتلات فى ذاتها ٠٠ أو من الخلافات التى قامت بينها ٠٠ فانا اعرفها ومتتبع كل عراكها ٠٠ ويستوى عندى أن تكون المنصورة هى المعترك ٠٠ أو أن تكون القاهرة ٠

انما اثار فزعى أن أتبين أن النقطة التى مررت بها كريما فى مقالى ٠٠ ولم اشا ان أركز عليها ٠٠ كان من واجبى أن اطيل الوقوف عندها ٠٠ وكان من حقها أن ينصب المقال انصبابا عليها ٠

والهب شعورى بهذا النقص ٠٠ مقال آخر فى العدد السابق نفسه٠٠ نسب فيه عالم كبير الى أديب كبير انه قال فى محاضرة له القاها على الطلبة العرب « ان فكرة الحرية بمعناها السياسى والمدنى فكرة لا تقاليد لها فى المجتمعات العربية أو فيما نبع عنها من فلسفات الفلاسفة أو فقه الفقهاء أو أدب الأدباء ٠٠ الخ الخ » ٠

والنقطة التى مررت بها كريما هى قول الزميل « ان من اليسير ـ وكافة الأيديولوجيات التى تحكم الانسان واقتصاده فى عالم اليوم الى جزئيات من كليات الاسلام الشاملة ، والنقص الذى وقعت فيه٠٠ هو اكتفائى بالقول ان « هذا كله حق ٠٠ولكن مهمة اقناع الجيل الاسلامى المعاصر بهذا الحق ٠٠ مهمة شاقة ٠٠ بسبب الأجهزة التى استوردناها ٠٠ واصبحت تدير طريقة التفكير فينا » ٠

هذه الأجهزة المستوردة ٠٠ كان من حقها ان تظفر بحصة الأسد من المقال ٠٠ لأنها سر تكتل الكتل ٠٠ وسر خلاف المنصورة ٠٠ وسر المعارك التى تدور بين بعض الصحف والمجلات فى القاهرة ٠٠ وتبلغ حد الضراوة أحيانا ٠٠ وتمس العقائد الدينية والمذاهب الفكرية مسا عنيفا فى بعض الاحيان ٠

هذه الأجهزة المستوردة ٠٠ هى التى تفرق بين ابناء الوطن العربى الكبير ٠٠ وهى التى تمزق أواصر الود ووشائج الحب بين الاخوة فى الوطن الاسلامى الأكبر ٠٠ وهى التى تحارب فكرة « اعادة الثقة بالحضارة الاسلامية » ٠

أسلوب خطر فى التفكير ؟!

والحقيقة التى لا محل لتجاهلها ٠٠ أن الجيل الحديث ٠٠ المثقف ثقافة أوربية أو امريكية له جهاز تفكرى يدير رأسه على مفاهيم معينة ٠٠ ويتسلل الى وجدانه بمشاعر معينة ٠٠ ويربى فى كيانه أذواقا

معينة .. تتباين تماما .. مع المفاهيم والمشاعر والاذواق العربية والاسلامية ..

وهذا الجيل الحديث له خطره . والاستهانة به غفلة .

وهو اذا لم يكن اليوم صاحب الصدارة المطلقة في الحقول الاسلامية .. فتحت أستار الغفلة يستطيع غدا أن يتسلل الى مراكز الصدارة .. ويقذف بالحضارة الاسلامية الى متاحف الفكر .. أو الى التراث القصصي لألف ليلة .. وشهريار .

وقد لا يستطيع أن يلحق الأذى بالاسلام كعبادة .. ولكني اتحدث عن الاسلام كحضارة ..

وقد يستطيع علماء المسلمين ان ينشروا الاسلام في بعض المجاهل .. بل ان يصلوا بنوره الى كثيرين من المستنيرين – على المستوى الفردي – في أمريكا مثلا .. ولكني – مرة اخرى – اتحدث عن الحضارة الاسلامية – وهي القضية الام – التي يمكن ان تؤدي دورها الضخم في هذا العصر .. الدور الذي يريد الزميل انزانه « الى حياة الجماهير التي تعتبر السند الحقيقي له » والذي تخوض كما قلت – ومن اجله – غمار معركة رهيبة ضد الحضارة المادية .. والذي قلت وأعيد القول أن هذا العصر بالذات مهيأ لقبول هذا الدور بعد أن دخل عالم المادة كله – وبغير تفريق مذهبي – في الفراغ والضياع والملل .

ولست أتهم الجيل الحديث المثقف بالجهالة .. ولا أحب أن أقول ان بل هذا الجيل لا يعرف شيئا عن تاريخ الاسلام .. او انه يعرف هذا التاريخ ويتعمد خيانته .

وانما أقول أن هذا الجيل الحديث محكوم بجهاز معين في تفكيره .. مشدود الى أسلوب نشىء عليه .. ولم يعد قادرا على تحرير رأسه منه .. فاذا لم نستطع ونحن على أبواب نهضة علمية عربية أن نستهوي عقله وذوقه ومشاعره باسلوبه وبطريقته .. وباحدث وسائل الاعلام التي تثير اهتمامه بحضارتنا وبتاريخنا – وهم قبل كل شيء بضعة منا ودماؤهم من دمائنا – فلا أستبعد أن يفلت الزمام منا .. وأن يحدث هذا الجيل تخريبا فكريا في أجيال كثيرة قادمة على الطريق .

الذين يعلمون .. أشد خطرا :

ولو أن الأمر يقف عند الذين لا يعلمون .. لهان .. ولكان من الميسور أن تفتح عيونهم على حضارة الاسلام .. وأن ننتقل بهواهم من لندن وباريس الى القاهرة وبغداد ولكن هناك فريقا يعلم .. وحصيلته من العلم لا يستهان بها .. وبعضهم تفرغ زمنا غير قصير لدراسة الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامي وبعضهم أوغل في الأدب العربي أو تخصص في الفلسفة الاسلامية ولكنه تلقى هذا كله بفكر أوربي شانه شأن بعض المستشرقين .. من الصنف الذي لم يستطع أن يهضم الحضارة الاسلامية .. ولم يستطع ان يستلطفها .. لأنه لا يملك جهاز استقبال لمحاسنها .

اولئك هم جماعة المتعبين من الذين يعلمون ..

ان لهم حصيلة من المعرفة شكلت حياتهم واذواقهم ومشاعرهم على نحو معين .. وهم مشدودون الى استخدام هذه الحصيلة في محاربة الحضارة الاسلامية بسبب الاجهزة التي تدير رؤوسهم .

والسؤال الذي اطرحه الان هو :

– هل من الخير ان نتجاهل هذا الفريق من الأبناء .. وندعهم ماضين في الضلالة ؟ لنمضي نحن في « الهجرة الجديدة » التي دعا اليها الزميل **عبده بدوي** ؟ ام ان الخير ان نقوم بعملية مصالحة .. وان نعالجهم بالطرائق التي تستهويهم وان نستفيد الصالحين منهم الى حضن الفكر الاسلامي قبل ان يستهووا هم عددا آخر من جيلنا الصاعد ؟

ان هؤلاء الشبان يسهمون مثلا في استيراد الجديد من الفنون كالمسرح والشاشة .. فلماذا يقيم بعض المتزمتين منا .. سدودا بين الاسلام وهذه الفنون ؟

ان هؤلاء المثقفين ثقافة أوربية .. يرون –وبحق– في خشبة المسرح وشاشة السينما فكرا رفيعا يفتح آفاقا رحيبة أمام المعرفة الانسانية وينقي العقل والقلب معا من مقومات النهوض .. وتاريخ الاسلام فيه من « الخامة الدرامية » ما لايحلم به تاريخ مماثل .. والدولة تغدق بالملايين على الانتاج المشترك بيننا وبين المنتجين العالميين .. فلماذا لانحتشد لحضارة الاسلام يحملها المسرح والشاشة الى كل أرجاء العالم ويحاول اقناع أبناء العصر الحديث ان الاسلام يستطيع « أن يقول كلمته في كل شيء » ؟

المعارك الجانبية :

اذكر هذا كله .. بمناسبة المعارك التي تدور الآن بين الكتاب الأعلام في « الرسالة » وزميلة لها ضد هذا الصنف من أبناء العرب الذين يفكرون بعقل أوربي ..

واذا كانت المصالحة لا تفيد .. فهل الخير أن نبدي الرأي في هذه المعارك نفسها ؟

نمضي في المحاولة ..

ولعل القارىء قد أدرك أني أعني هذه المعارك التي

تدور على صفحات « الرسالة » و « الثقافة » ·· وتسدد «قذائفها «الى «خصومها » الرابضين فى بعض « القلاع » ·· أو المتترين على رقعة فسيحة من هذا الكوكب يحاولون أن يرفعوا « ألغام الاسلام » من طريقهم حتى يبسطوا سلطان «المادية» على البشر ·· وباسم العلم ·· وتحت ستار المحبة ·· وفى الناس المسرة ·· وعلى الأرض السلام ··

ولكن المعارك جانبية ؟!

وعلى الرغم من اعجابى ببعض السواعد المفتولة التى يقاتل بها كتاب «الرسالة» خصومهم فى فدائية وفتوة — ولا محل اليوم للاسماء — فان لى بعض الملاحظات على هذا القتال ·· أرى أن من « واجبى » كمسلم أن ابديها ··

نعم ·· الاحظ — والملاحظة لا تغض من جلال المعارك — ان هذه المعارك جانبية ·· ولا جامع بينها ·· ولا اتفاق بين انصار الاسلام على اى تخطيط لها ·· بحيث يخيل لى احيانا ان كل كاتب منهم يالم للعقيدة او للحقيقة فيختار سلاحه ويحدد اتجاهه ويندفع بقلبه وضميره الى المكان الذى يحب أن يقف فيه ليطلق القذيفة منه ·· رجاء ان يصرع أحد الخوارج ·· ويمضى ·

والاحظ أيضا — ولعل هذه الملاحظة أشد خطرا — أن زمام المبادأة فى أيدى خصوم الاسلام دائما ·· وأن كتابنا المسلمين انما يخوضون المعارك ردا لهجوم من جانب الخصوم ·· هجوم ماكر غير سافر ·· وهجوم بارع ينطوى على استفزاز فنى ·· من الباطن ·· وعلى براءة براقة من الظاهر ·· وقد تجد هذه البراءة عند القراء السذج ·· شيئا من العطف عليها ·· بحيث يتبدى « الأبرياء » فى صور المظلومين والشهداء ·· ويتبدى كتابنا المسلمون ·· فى صور المعتدين الأشداء ·· وان كنت أستثنى من هذه الملاحظة كتابا كبارا فى المجلتين ·· لهم فى نفسى مكانة ·· ومن بينهم مؤمنون صادقون ·· أصروا على الكفاح ومشوا فيه شجعانا · يبصرون طريقهم ·· ويكشفون فى جرأة نوايا الخصوم ·· ولا يملون مواصلة الحملات شهورا بعد شهور ··

هؤلاء ·· أستثنيهم لأنى لا أعنيهم ··

ما هى الأهداف ؟

واذا كنت أحب أن أسأل أصحاب المعارك الجانبية عما وراء معاركهم ·· أو عن أهدافهم منها ·· فانى أحب أيضا أن أحدد هدفى من هذا التساؤل ·· وأحب أن أحدد ما أعنيه من كلمتى « المعارك الجانبية » ·· وما أهدف اليه من وراء الملاحظات التى أبديتها ·· والعلاقة بين هذا كله وبين الدعوة الى « اعادة الثقة بالحضارة الاسلامية » ·

أقول : لو أن قارئا راجع أى عدد من أعداد « الرسالة » او « الثقافة » لوجد فيه ذخيرة كبيرة ·· من الذود عن الاسلام والعروبة واللغة العربية والفلسفة الاسلامية ·· ولشعر بالزهو يملأ صدره ·· وبالفكر يملأ رأسه ·· وبالقيمة تملأ قلبه ·· وبالعقيدة تملأ وجدانه ·· وهو يطالع هذه الفصول الضافية ·· ولكنها — وعلى الرغم من هذه الغزارة فى كل فصل منها — لا رابطة كما قلت بينها ·· ولا تخطيط يتجه بها الى الهدف الذى كان ينبغى أن تستهدفه وهو الدعوة الى البعث الحضارى المسلم الذى يأخذ الطريق على خصوم الاسلام ·

وللبيان ·· أمامى الآن عددان ·· من المجلتين الحبيبتين ·· فأقرأ فى « الثقافة » مقالا ضافيا — أو حلقة بارعة من سلسلة حية — عنوانه «الناظرون بعيون الغير » ·· ثم أقرأ بعده مقالا ممتعا لعالم كبير أجله عنوانه « اللغة العربية » ·

وفى المقال الأول حديث ممتع عن « فريق يتربع على صدر امتنا ولكنه « يدفعها دفعا عنيفا الى المنحدر الخطر بانفصاله عنا فى الفكر والشعور ·· وفى التقاليد والسلوك » ثم يرى الكاتب — بحق — ان « الدعوات المريبة الى اصطناع العامية لغة للانتاج الأدبى » ليست « سوى تطبيق غير مباشر لهذه الانفصالية » وهو يرى أنه « لو قدر لأولئك يوما ان يفرضوا على شعبنا فكرهم ·· لا أقول ستحدث الكارثة ، بل أقول بهدوء سيجد هؤلاء الماديون أنفسهم وبأيديهم لجام ·· فر الجواد منه » ثم يقول « ومن أخطر نماذج الرؤية بعيون الغير أولئك الذين يستوردون لنا من خارج الحدود مذاهب ومعايير ليعرضوها علينا دون تقدير لخصائص شعبنا كما يفعل بعضهم فى محاولة ربط اشتراكيتنا العربية بالرباط الماركسى » ·

وفى المقال الآخر للعالم الكبير حديث ممتع عن « اللغة العربية » وكيف « نبتت فكرة فى بعض الرءوس التى تسكنها الشياطين ولا يعمرها ايمان ·· » ان « ينزلوا الكتابة من علياء العربية الفصحى الى حضيض العامية » ثم بين الكاتب العالم أنهم انما يفعلون هذه الكبيرة لعجز فى الكتابة اتسموا به ولانهم يريدون أن تستمر الفرقة بين العرب « فان الفصحى تجمع والعامية تفرق » ·· ولانهم يريدون « قطع العرب عن ثقافتهم وصرفهم عن ماضيهم » ·

وأدع المقالين .. بعض اللحظات .. لأنتقل الى « الرسالة » ومقال فيها عن « الفلسفة الاسلامية فى جامعات اوربا » – وهو أيضا حلقة ممتعة من سلسلة مقدورة – تحدثنا عن طائفة الرهبان الدومينيكان خصوم الفلسفة الاسلامية فى الجامعات الأوربية فى العصر الوسيط .. وما صنعوا بابن رشد .. الأندلسى وآرائه .. وعن ديكارت وكيف نقل عن الفارابى تقسيمه للعلوم ونسبه –اى ديكارت– الى نفسه وجعله من قواعد منهجه وجحد فضل الفارابى .. الخ الخ .

وفى الرسالة مقال عنوانه « دفاع عن الطهطاوى » .. استهله كاتبه العالم .. بأن نقل الينا قول أديب مصرى كبير فى محاضرة له القاها على الطلبة العرب « ان فكرة الحرية بمعناها السياسى والمدنى فكرة لا تقاليد لها فى المجتمعات العربية أو فيما نبع عنها من فلسفات الفلاسفة أو فقه الفقهاء أو أدب الأدباء » .

ولقد استطاع الكاتب العالم أن يخب ويوضع .. فى تسفيه هذا الرأى القريب من الكاتب الأديب الذى قال به .

وفى عدد « الرسالة » نفسه .. مقال للاستاذ الزميل عبده بدوى عن مهرجان المنصورة .. استطاع فيه أن يثير فزعى وهو يرسم صورة للتكتلات القاهرية التى عرض لها وهو ينقل الينا بعض ما جرى فى المهرجان الثقافى والخلافات التى ثارت بين الأدباء المدعوين اليه حتى لقد « قال زميل : ان هناك هجوما على الماركسية وعلى المسيحية .. وعلى بعض الأشكال الجديدة فى الأدب .. ولم نشأ أن نرد على هذه الموجة بأن هناك هجوما على الله وعلى نبيه وعلى العرب والاسلام والوحدة والقومية لئلا يزداد الجرح ولكننا آثرنا ان نذكر أن المقالات التى كتبت .. كانت مناقشة للماركسية كأية فلسفة من الفلسفات وأن الله اذا كان يناقش فى هذه الفترة فان ماركس لابد أن يناقش وأنه لا توجد كلمة واحدة تهاجم المسيحية بل هناك دفاع صريح عن المسيح حتى تحول فى شعر بعض الشعراء المسيحيين الى ماكر وعنكبوت وباصق فى الوجوه » .

القضية الأم ..

وليس فى نيتى أبدا أن أعارض اتجاها من هذه الاتجاهات التى قامت عليها هذه الفصول فى المجلتين بل لعل الخواطر توارد عندى وعندهم فى بعض المواقف فقلت فى مقال السابق فى الرسالة تعليقا على رأى للاستاذ عبده بدوى ، وهذا كله حق .. ولكن مهمة اقناع الجيل الاسلامى المعاصر بهذا الحق .. مهمة شاقة بسبب الأجهزة التى استوردناها .. وأمست تدير طريقة التفكير فينا ، ثم جاء كاتب « الثقافة » يقول : « الذين يستوردون لنا من خارج الحدود مذاهب ومعايير .. الخ الخ » ونحن اذن على اتفاق حتى فى استخدام كلمة « الاستيراد » .

ولا يمكن أن اختلف مع هؤلاء الكتاب الأجلاء فى قضية الفصحى والعامية .. بل انى أنوى أن أثير هذه القضية على صفحات « الرسالة » قريبا .. ومن زاوية المسرح .. بعد أن تورطت أنا شخصيا فى كتابة مسرحيتى « غلطة العمر » بالعامية.. وافتتحوا بها موسم « المسرح الحديث » القائت .. ولا أزيد الآن حرفا .. قبل أن أثير القضية على مستوى التكامل .

والتعقيب الممتع الذى جرى به قلم الزميل على ما جرى فى المهرجان لا يحوجنى الى ترجمان .

وانما الذى اريد ان اقوله – وانا اؤيد دعوة الزميل الى « اعادة الثقة بالحضارة الاسلامية » .. ان هذه المعارك الجانبية كما أسميتها – أو القضايا الصغيرة كما سميت فى مقال المهرجان قد تصرفنا عن الدعوة الخطيرة الى القضية الأم .. قضية الحضارة الاسلامية والبعث الحضارى كله ، ان أقلام هؤلاء الأعلام الذين يكتبون فى « الرسالة » وزميلتها .. مدعوة لقضية كبيرة وخطيرة .. تلقف كل ما صنع خصوم الاسلام .. بالأمس .. وكل ما يعدونه للاسلام من خبث ودس .. غدا وبعد غد .

ولا أعنى أن أهيب بالكتاب الاعلام أن يهادنوا العامية فى اللغة .. ولا الأشكال الجديدة فى الأدب والفن .. ولا الأجهزة المستوردة فى التفكير.. وانما أهيب بهم كما أهبت بالزميل عبده بدوى وصحبه.. أن يتلاقوا عند القضية الأم .. وأن يخططوا للبعث الحضارى الاسلامى على المستوى العالمى.. وبالطرائق العلمية.. وبالأساليب العصرية.. وبوسائل الاعلام البارعة التى تملكها اليوم بلادنا بوصفها قاعدة وطليعة ..

« اعادة الثقة بالحضارة الاسلامية » هى وحدها السلاح .. وهى وحدها العلاج .. وهى وحدها صانعة السلام .. وهى وحدها التى تملك أن تعيد تشكيل الحياة .. وكما تدخلت مرة فى مجرى التاريخ فحولت مجراه .. تستطيع أن تتدخل مرة أخرى .. وتحول من جديد هذا المجرى .

وهذا هو كل ما أردت أن أقوله .

رماد

[إليها بعد سنوات من القطيعة .. كان قبلها الحصاد .. فهذا الرماد]

للشاعر : إبراهيم محمد نجا

كنت يا فتنتي اذا مسني عتـ   بك أمضي ، وهل نفسي بكاء
فاذا ما هجرتني .. ضاع مني   كل ما اشتهي ، وضاع الرجاء
ورأيت الأيام .. أيام عمري   تتهاوى ، كأنها أشلاء
قد جفاها الربيع وهو حياة   وطواها الخريف وهو فناء
ان أتاني النهار سرت وحيدا   ووحيدا تضمني الظلماء
اسكب الدمع والخفاء شهيد   هل يصون الدموع الا الخفاء ؟
وتناديك ـ حيث كنت ـ حياتي   فيهز الوجود هذا النداء
فاذا ما أتيت صورة حب   صورتها الرسائل الزرقاء
هزني سحرها ، لعاد الى قلـ   بي ربيع المنى ، وعاد الغناء
وتجلت أيامه زهرات   عا نقتها أفراحها الغراء
وسقاها روح الحياة غدير   مستهام ، وربوة عذراء
وانطلقنا الى الفضاء .. وهل يطـ   لق روح الشباب الا الفضاء ؟
هكذا كنت حين عشت بقلبي   وهو في الحب جذوة حمراء
هكذا كنت حين هزت كياني   ووجودي العواصف الهوجاء
هكذا كنت حين نفر أيا   مي حنان ، وكلمة خضراء
فانظري الآن .. قد نسيت غرامي   حين مستك سلوة وعزاء
وفقدت الرجاء فيك ، وعادت   روضة الحب ، وهي منك خلاء
وعجيب أني أعيش بقلب   غادرته الأشواق والأهواء
وحياتي بحيرة نام فيها   كل صوت .. ونامت الأصداء
فكأني لم يعرف الحب قلبي   لا .. ولا مر في حياتي نساء
وكأني وما رأيتك يوما   فاعترتني من رؤيتي أشياء
وكأنا وما التقينا ـ على البعـ   د ـ ولا ضمني اليك المساء
وكأني ما صنعت فيك من الأشـ   عار سحرا يشدو به الشعراء
آه مما جرى ، فصير قلبي   مثل نبع يغيض فيه الماء
آه مما جرى ، فصير عمري   سرحة عاث في صباها الشتاء
آه مما جرى ، فجفف أحلا   م شبابي كأنها أنداء
أسعيد أنا ؟ لعل سعيد   ولعل يمتص عمري الشقاء
أنا صمت .. لكنه صمت قبر   لغريب تضمه الصحراء
أنا صوت .. لكنه غير مجد   في حياة أصداؤها ضوضاء
أنا طير يحيا بغير جناح   وشراع تهوى به الأنواء
أنا طيف يمضي مع الناس .. لكن   ليس يدري بسره الأحياء

يرماد قلبي ... يكان لهيبا   يتسامى فيه اللظى والضياء
فاعيدى لى اللهيب الذى كا   ن ، ففيه لنار قلبي غذاء
وكفانى انى اسير على الدر   ب غريبا .. يبكى له الغرباء
واعذرينى اذا قسوت ، فالشـ   ـر جماح ، وللهوى غلواء
واذا ماقرات شعرى فلا تخـ   ـدعك منه الأوصاف والأسماء
ربما تومىء الظلال الى النو   ر بايد فى طيها الاضواء
وتعالى .. لعلنا نتلاقى   بعد ما ضاع من يدينا اللقاء
فيعود الهوى باجمل ايا   م ، وفى ظلها يعود الصفاء

عاشقة البحر

للدكتور: عفيفي محمود

صارعى البحر ... صارعيه   وباهدابك اصرعيه !!
ذوبى ملحه ... وذوبى   فيه شهدا ... وعطريه !
واسكبى من لماك فيه   بحر خمرا ... واسكريه !!
ياله عاشقا عجوزا ...   هام بالحسن ... يفتديه
ويحه من هوى الغوانى   آخر العمر ... يبتليه !
اكسبى موجه شبابا   ثم عودى ... فشيبيه !!
جن حتى استحال وحشا   همجيا ؟ ... فروضيه !
واذا ما أتاك وثبا   طامعا فيك ... فاردعيه
فاذا ما انزوى عبوسا   عاتبيه ... وصالحيه !!
او اتى عابثا ضحوكا   عابثيه .... وضاحكيه
خاصريه ... وراقصيه   لاعبيه ... ودوخيه !
واجعلى موجه سريرا   زنبقيا ... وهدهديه
واركبى متنه بساطا   ولما شئت سخريه !
فاذا ما شبعت منه   فاهجريه ... وعذبيه
قبل ان تغرقى ببحر ال   حب ... فى الحب اغرقيه !
واذا كان ليس يدرى   كيف يهوى ... فعلميه !!

القصة العربية القديمة

للدكتور أحمد كمال زكى

- ٣ -

قبل أن نتعرض بالذكر للقصص الشعبية التى ذكرنا منها فى مقالنا السابق « الأميرة ذات الهمة » و « عنترة » و « سيف بن ذى يزن » يجب أن نعيد النظر فى رصيدنا القصصى ابتداء من القرن الرابع الهجرى · وفى هذا الصدد تلقانا رواية أبى بكر محمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ / ٩٤٦ فى كتابه « الأوراق » التى يقول فيها ان الناس فى زمانه كانوا يتداولون كتب الخرافات كأحاديث السندباد وعجائب البحار والسنور والفار · وذكرت من قبل أن نساء القصر ـ وكن قد تسلطن على الخليفة والحكم ـ رحن يدعون الى مثل هذه القصص ·

كان ذلك فى القرن الرابع ·وعامة الناس تنصرف عن مجالات العلم مكتفية ـ على أحسن الفروض ـ بأهونها مما يجرى مجرى القصص ، من ذلك «كتاب من عاش بعد الموت » وهو حكايات قصيرة كتبها فى نهايات القرن الثالث أبو بكر أبى الدنيا القرشى، ومنه أيضا « كتاب المجالسة » لأبى بكر أحمد بن مروان الدينورى المتوفى سنة ٩٢٢/٣٣١ وبعضه مفقود ولكن ما بقى من أجزائه ـ وهو مطبوع ـ يدل على أنه مجموعة من القصص والمقامات والأحاديث الطريفة، وهذه بطبيعة الحال لم تسم الى مرتبة أحاديث ابن دريد ومقامات بديع الزمان·

ويبدو أن كثيرا من العلماء أسهم فى الحركة القصصية بطريق غير مباشر · فأبو بكر محمد ابن جعفر الخرائطى السامرى المتوفى سنة ٣٢٧/ ٩٣٨ يضع « كتاب اعتلال القلوب فى أحاديث المحبة والمحبين» وهو قصص عن عشاق العذرية والصوفية، وأبو على المحسن بن على التنوخى المتوفى سنة ٣٤٢/ ٩٥٣ يضع « كتاب الفرج بعد الشدة » وهو مجموعة من الحكايات والنوادر قيل انها لوالده ، وهذبه بتصرف محمد عوفى فى « جامع الحكايات وجوامع الروايات » ثم رفعه الى أحد سلاطين الهند فى القرن السابع الهجرى ، وترجم الى الفارسية والتركية أيضا ، وقد حاول « لوزن » فى مجلة الساميات الألمانية أن يربط بين احدى قصصه ورواية جوته الألمانى « عروس كورنت » على الرغم من اختلاف الباعث فى كلتيهما على ما لحظ بروكلمان فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » ·

ومن الضرورى أن نذكر أيضا أن للتنوخى يدا أخرى فى مجال القصة ، وذلك أنه ابتداء من عام ٣٦٠ وضع «كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» ·فجاء بعد عشرين عاما جامعا لكثير من الحكايات والأخبار · وهى فى رأينا لا يمكن أن تكون قصصا خالصا ، وانما من قبيل الروايات التى تختلط فيها الحقائق بالخرافات والأساطير التى نراها عادة فى أول جزء من أجزاء كتب التاريخ المشهورة ·

ويجب أن نقرر أن كثيرين من الفرس دخلوا ميدان القصة · حقا كان دخولهم فى الواقع قديما

ـ فقد ذكرنا أن موسى الأسوارى كان يقص فى القرن الثانى بالفارسية والعربية ـ الا أنهم زادوا فى هذه الفترة ، وبسطوا للعامة كل ماعرفوه عن « خداى نامه » و « الشاهنامه » التى عرفت طريقها الى العرب منذ بدأ النضر بن الحارث يخلف الرسول فى مجلسه متحديا ٠

وهكذا نستطيع أن نقول ان القرن الرابع كان ازهى عصور القصة العربية القديمة ، وقد توجت المجهودات فيه بوصول آثاره الى الأوربيين ٠ وربما كان من تلك الآثار ما كان منقولا الى العربية كالف ليلة وليلة ، وما يحمل شبهة الترجمة ككليلة ودمنة، غير أن كثيرا منه كان عربيا خالصا ، فاذا اضفنا اليه ما وضع فى القرنين الخامس والسادس الهجريين كانت المحصلة المقامات ورسالة الغفران التى كتبها أبو العلاء المعرى المتوفى سنة ١٠٥٧/٤٤٩ وحكايات ابى القاسم البغدادى التى الفها محمد بن احمد المطهر وترجمها آدم ميتز سنة ١٩٠٢ وحى بن يقظان التى ألفها محمد بن عبد الملك بن طفيل المتوفى سنة ١١٨٥/٥٨١ ٠

وبغض النظر عن المقامات التى عرضنا لها لمحا فى مقالنا السابق ذاكرين أنها أثرت فى قصص الشطار الأسبانية على وجه الخصوص ، وعن كتاب ابى القاسم البغدادى الذى لا يخرج عن أن يكون مغامرات وطرائف وغرائب لأحد شيوخ بغداد الطفيليين ، فانه يخلص لنا عملان مهمان لايذكرهما الدارسون ـ للعجب ـ فى معرض القصص العربى : أولهما رسالة الغفران ، وثانيهما قصة حى بن يقظان !

أما رسالة الغفران فهى ضرب من القصص الرفيع يبعد كل البعد عن قصص العامة المبتذلة عن قصص الخاصة التى ينقصها النضج الفنى المطلوب ، وهى على الرغم من غرابة أسلوبها وصعوبته ، تقدم عملا قصصيا رائعا استوحاه المؤلف العظيم من الفولكلور الاسلامى وبعض التفاسير ٠

والقصة فى تخطيطها العام وبعد حذف الفضول وبغض النظر عن حذلقة أبى العلاء لا تخرج عن أن تكون رحلة للعالم الآخر ، وهذه الرحلة موجودة فى كل أساطير الشعوب القديمة لا سيما أساطير الاغريق واليونان ٠ وليس يمنع الاعتراف بعبقرية المؤلف أن يقال ان ابن شهيد ـ معاصره المتوفى سنة ٤٢٦ ـ سبقه الى تأليف « التوابع والزوابع » فان أبا العلاء يحلق فيها تحليقا لا يقل خطورة عن تحليق القاص الشعبى فى السير المشهورة ٠

وتقرر بادىء ذى بدء أن القصة يعوزها «الشكل» القصصى العام ، ولكنها مع ذلك فى القمة لا سيما اذا عرفنا أن كثيرا من الأعمال القصصية الرائدة ينقصها هذا الشكل ، باستثناء المقامات بطبيعة الحال ٠ بل ان أبا العلاء يبدو فيها كما لو لم يكن فى ذهنه اى تخطيط لأى شىء سوى أن يؤكد احاطته الهائلة باللغة وبأعلام الأماكن والقبائل والطوائف والأشخاص ٠ لقد كان بحسبه الأفكار دون ما حاجة الى « الجنس الأدبى » و « الأسلوب الفنى » ومع ذلك فقد أوجد « الاطار » من العدم ٠ أو لعلنا نكون أكثر اصابة لو زعمنا أنه بنى الشكل الذى لا يدخل تحت أى « جنس » أدبى أو « نوع » أدبى له حدوده المقررة ٠ وهذا الزعم لا يرفض أن يكون أبو العلاء حور شكلا قديما بعينه ـ لعله حديث ابن عباس فى الاسراء والمعراج ـ أو خلط بين أكثر من شكل سبقه اليه فنانون عرفهم وتأثرهم على نحو من الأنحاء ٠

ويتلخص موضوع القصة فى أن « ابن القارح » يدخل الجنة بعد وقوفه فى المحشر واستشفاعه آل البيت المكرمين ، وفى الجنة يقابل طائفة من الشعراء يحاورهم ويأخذ بأسباب النعيم الخالد ويطوف بأرجاء الفردوس حتى يحتاج الى أن يستريح ٠ وعندما يقعد يشرب كاسا لا تذهب العقل ويأمر الحور العين أن يهيئن مفرشا من السندس فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة ويتحرك ، فما يمر بشجرة الا نضحته أغصانها بماء الورد قد خلط بالمسك والكافور ، وكان أهل الجنة يلقونه بأصناف التحية الودود ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » ٠

هذا هو الموضوع ، وكان لطرافته أثره فى الآداب العالمية حتى قيل انه كان أساسا لأعمال خالدة توضع « الكوميديا الالهية » التى كتبها دانتى فى مقدمتها ٠ ان دانتى شاعر ايطاليا لم يكتب ملحمته الا فى القرن الرابع عشر الميلادى، أى بعد أن مات أبو العلاء بثمانية قرون أو نحوها ٠ ومنذ خروجها الى اليوم

وهى تثير الناس ويحتدم حولها النقاش ، وظهر فى آخر الأمر أن ما درج الدارسون على تسميته « المصادر الشرقية للكوميديا الالهية » يمثل فى الواقع ميدانا كبيرا من ميادين الأدب المقارن تظهر فيه عقلية أبى العلاء عملاقة طاغية ·

ولا يعنينا الآن أن تبين طريق رسالة أبى العلاء الى دانتى فلذلك مجال واسع آخر ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه أن دانتى كان محيطا بثقافات المسلمين احاطة كاملة ، وليس ما ينفى أن يكون قد عرف « رسالة الغفران » لا سيما أن ملحمته مليئة بمواقف فنية لم توجد الا فيما رسمه أبو العلاء فى رسالته ·

وندع الآن هذه القصة الى « **حى بن يقظان** » فنقول ان هذه بدورها قصة متكاملة نوعا ، وخلاصتها ان حى بن يقظان ينشأ – بالقوة وبتفاعل بعض مواد الطبيعة – فى احدى الجزر المهجورة من جزر الهند عند خط الاستواء ، وترضعه غزالة وترعاه حتى يشب عن طوقه · ولما كان هذا الطفل قد فطر على اعمال فكره فقد اهتدى الى كثير من الميتافيزيقيات والحقائق الصوفية التى تقوم أساسا على الفناء فى الله عن طريق الوجد والوله ·

وبهذا الوجد حاول « حى » أن يقلع عن الجزيرة فى حين هبط اليها متصوف يقال له « ابسال » · وكان هبوط ابسال مرحلة أخرى من مراحل القصة ، فقد علم حيا اللغة والكلام ، ولقنه الشرائع السماوية ، وقاده الى جزيرته التى جاء منها ليعلما معا الناس ما اهتديا اليه من قيم الصوفية · واذ يخفق الرجلان، يعودان ثانية الى الجزيرة التى نشأ فيها حى ، تاركين الناس على نصح أن يثبتوا على دين الآباء ·

والحوادث فى هذه الحدود خير قصة تداولتها العصور الوسطى على ما يقرر أغلب الدارسين ،وهى فى الحقيقة متينة البناء برغم ازدحامها بالآراء الفلسفية واقحام كثير من الأفكار المجردة عليها · ويبدو أنها ترتكز على بعض حكايات شعبية ، بل ان المستشرق الأسبانى جارسيا جومس يرى أن ثمة قصة شعبية بعينها · كانت أساسا لقصة ابن طفيل، ومن ثم شاعت فى الأوساط الاسلامية – الخاصة والعامة – ونقلت الى اللغات الأجنبية من لاتينية وفرنسية وانجليزية وعبرية ، وقال عنها ناقلوها انها أقوى ما فى الأدب العربى وأكثره اصالة وطرافة، وأشاد بها لايبنتز الفيلسوف ·

ويذكر الدكتور غنيمى هلال أنها أثرت فى الكاتب الاسبانى بلتاسار جراثيان (١٦٠١ – ١٦٥٨) عندما كتب قصته « النقادة » وهذه تحكى حياة بطلها أندرينيو – بعد أن يلتقى به كريتيلو الفيلسوف – فى مراحل الطفولة باسبانيا والرجولة بفرنسا والشيخوخة بايطاليا ، عارضة لتقاليد عصر المؤلف بالتجريح والتقويم ·

كذلك أثرت بما تقرره عن استطاعة الانسان أن يهتدى بالفطرة الى الايمان فى دعوات الرومانسية خلال القرن التاسع عشر · وليس ينبغى فى هذه الحال أن تنظر الى الشكل أو القالب الفنى العام ، فقد ينحصر التأثير فى جوهر الفكرة · وأما ما يقال عن تأثيرها فى « روبنسون كروزو » فأمر يحتدم الجدل حوله ،وان يكن ثمة من يجعل العلاقة التاريخية بينهما ثابتة أكيدة ·

وبعد ، فما أحرانا أن نعيد النظر فى تراثنا القصصى ، حتى لا يقال اننا عالة على الغربيين فيما تصدر عنه اليوم !

« د · احمد كمال زكى »

التراث العربى في الآداب الأوروبية

للدكتور : محمد مختار القاضي

١ ـ الزجل

ربما اختلف في الوطن الأصل لهذا الفن من فنون الشعر ، فمن قائل انه نشأ بالأندلس ثم انتشر منها الى البلاد العربية ، ومن قائل انه نشأ نشأة مستقلة في كل بلد عربي وجد فيه وانه فن اصيل من فنون الشعر العربي . حدث مثل هذا الاختلاف ولكن المعنيين بتاريخ الزجل من مستشرقين وغير مستشرقين اجمعوا على ان الزجل العربي اثر في الأدب الأسباني المسيحي ثم انتقل هذا التأثير ابان العصور الوسطى الى بقية الدول الاوربية .

اما اثر الزجل في الأدب الاسباني المسيحي فقد كان ملحوظا فيما نقله الفونسو الحكيم (العاشر) وفي ديوان أبر برست دى هيتا الذى ظهر في القرن الرابع عشر . وقد ذكر المؤلف في ديوانه هذا انه كان ينظم شعرا تغنيه مغنيات مسلمات مع الموسيقى . وكذلك نجده عند فلياستدينو وخوان دلثينا في القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر(١) كما ان اناشيد الفونسو الحكيم الدينية لا بد ان تكون مشتقة من الغناء العربي الأندلسي وخاصة الزجل ، فمن بين الصور التفسيرية التى تصور العازفين على مختلف الآلات الموسيقية صورة في مخطوط تمثل شاعرا نصرانيا وآخر مسلما يعزفان على العود سويا ويغنيان معا .

ولقد بلغ من تغلغل الغناء العربي في البيئات المسيحية ان مجمع القساوسة الذى انعقد في بلد الوليد سنة ١٣٢٢ الميلادية شكا من ان المسيحيين يدخلون معهم في الكنائس المسلمين واليهود يغنون ويعزفون في المحافل الدينية ، وانذر من يعودون الى ذلك بالعقاب الشديد وباخراجهم من حظيرة الكنيسة وحرمانهم من الدفن الكنسى .

اما في خارج الكنيسة فلم يكن للتأثير العربي حدود ، بل كان شائعا عاما في كل مكان ، ومنذ القرن العاشر والصحبة بين المغنين المسلمين ورفاقهم من المغنين المسيحيين مضرب الأمثال . وفي سنة ١٢٩٣ الميلادية بلغ عدد الشعراء الذين كانت تجرى عليهم الأرزاق في بلاط سانشو الرابع ملك قشتالة ، المعروف عند العرب باسم « شانجه » بلغ ثلاثة عشر شاعرا من المسلمين واثنى عشر من المسيحيين ، وكان بدرو الرابع ملك ارغونة المعروف عند العرب باسم « شانجه » ـ بلغ ثلاثة عشر شاعرا من المسلمين شاطبة ، وكانت بها مدرسة ذائعة الصيت (١) .

هذا في اسبانيا وحدها ، اما في بقية ممالك اوربا ، فان المستشرق الالماني جورج يعقوب يبين لنا ، بعد لمحة قصيرة عن تاريخ ظهور الزجل ، كيف كان لهذا الفن الأدبي فعل السحر في اوربا وخاصة فيما يتغنى به جماعة التروبادور قال الكاتب (٢) ، ان اثرا ادبيا اخر يغزو الأدب الاوربي ، وهو هذا الضرب من فنون الشعر الذى انتشر بين طبقات الشعب المختلفة وشغل من ادبها المكان الاول ، اعنى الزجل ، فهذا الفن من فنون الشعر السبعة التي نشأت فيما بعد في الأدب العربي مختلف في وطنه كما اختلف في الوطن الأصل للمواليا . فهناك رواية تذكر بغداد ، ومخترعها جارية عاشت أيام هارون الرشيد . ورواية اخرى يفهم منها ضمنا ان وطنه بلاد المغرب واخترعه رجل يقال له راشد ،

---

(١) لطفى عبد البديع في كتاب الاسلام في اسبانيا ، ص ١١٨ طبعة ١٩٥٨ .

(١) المرجع السابق ص ١٢٠ و ١٢٢ .

(٢) أثر الشرق في الغرب ـ مترجم عن الألمانية ص ٨٦ ـ الترجمة العربية ١٩٤٦ .

وقيل ابو بكر قزمان ، وان كانت الأزجال قد قيلت قبله • وعلى كل حال فهذا الفن من الشعر باجماع جميع الروايات اينع وكثر في الاندلس دون سائر الاقطار الاسلامية • وهذا الضرب من فنون الشعر العربي يمتاز بصدق تمثيله لنفسية الانسان وخواطره ، وقد ظهر بعد ان مهد له شعراء العرب من جاهليين واسـلاميين بشعرهم الغزل الذي شادوا فيه بالمراة وجمالها ، هذه المراة التي احتلت من شعرهم المكان الاول ، حتى ان الشاعر العربي ليستهل قصيدته او حوليته بالغزل ، هذه النفسية العربيـة بعينها التي جعلت العـربي قبل غيره يعترف باثر المراة ومكانتها في حيـاته الادبية او الاجتماعية اضطرت الشعر العربي الى الافصـاح عما يجول بخاطر الشاعر ، وهذه الظاهرة لم تظهر في اوروبا الا بعد ان احتكت بالعرب في الاندلس وصقلية والحروب الصليبية • وقد انتشر هذا الفن في جنوب فرنسا حيث نجد جماعة التروبادور، ومن ثم يشق هذا الفن طريقه الى مختلف الممالك الاوربيـة ، وخاصة ايطاليا ، كما اشار الى ذلك العلامة الالماني جراف شيك والبنه » •

وفي نفس المعنى يقول الاستاذ الاسباني جنثالث (١) « يعتبر الفن الشـعرى الذي ابتكره مقدم بن معافى القبرى ، الذي نجد اظهر نماذجه عند ابن قزمان ، المفتاح العجيب الذي يكشف لنا عن سر تكوين القوالب التي صبت فيها الطرز الشـعرية التي ظهرت في العالم المتحضر اثناء العصر الوسيط كما قال خليان ـ ريبيرا وايده بالبراهين • وقد تجلت الدراسات التي قام بها ذلك الاستاذ حول موسيقى الكنتيجات (الاناشيد الدينية) ودواوين التروبادور والتروفير (طـوائف من المغنين المتجـولين) (٢) • والمنيزنجر (منشدو الحب وهي الاغاني القصيرة) تجلت عن اثبات انتقال محور الشـعر الاندلسي مع الموسـيقى العـربية الى اوربا بنفس الطريق الذي انتقل به الكثير من علوم القـدماء وفنونهم ، لا ندري كيف ••• هذا ولم تنتقل الى اوربا انغـام الموسيقى وحدها بل صاحبتها الاغنيات التي تغنى بها ، وكان من الطبيعي ان تكون لها اثار في الطرز الشعرية التي وجدت هناك » •

ويتعرض المؤلف بعد ذلك الى طرز الشعر الغنائي وموسيقاه عند طائفة من الدول ، محيلا الى النتائج التي وصل اليها خليان ريبيرا من حيث تاثر الشعر الاوربي بالطراز الاسباني في هـذا المجال الى ان يقول (٣) « والواقع ان اوائل التروبادور البرفنسيين استخدموا اقدم القوالب الزجلية الاندلسية وتغنوا بغرامياتهم الجارحة للحشمة بنفس الحرية وعدم التحرج اللذين نراهما عند ابن قزمان • وفي العصر الذي عاش فيه الشاعر سركامون ، اي قبل عصر الكونت دى بواتيه جد على الشعر البروفنسي تقليـد جديد لم تبق لنا منه نماذج ، ولكن الاغلب انه هو نفسه الذي سار عليه من اتوا بعده مباشرة » •

(١) تاريخ الفكر الاندلسي ـ مترجم عن الاسبانية ص ٦١٣ وما بعدها •

(٢) في رأى كثير من الباحثين الاوربيين أن اللفظين مشتقان من كلمة طرب العربية •

(٣) المرجع السابق ص ٦١٤ وما بعدها •

ويستعرض المؤلف انموذجا من شعر الكونت دى بواتيه قريبا جدا من اشعار ابن قزمان مع بيـان التغيير في موضـع الخرجه (الشطر الذي يتكرر بعد ثلاثة او اربعة اشطر) وفي موضـع الاغصان (مجموعة من ثلاثة او اربعة اشطر ذات قافية موحدة) ويرى انه تغيير طفيف لا يمس الجوهر ، كما يستشهد باشعار موان دى متودون ، و ج • راينولد و ج • ماجريت ،وسداسيات ماركابرى ، الى ان يقول : « وقد ظل نظام هذا الطراز الشعبي الاندلسي ذي الاغصان (يقصد الزجل) باقيا في صناعة الالحان الموسيقية خلال العصور الوسطى ولاسيما هذا النوع من الالحان المعروف بالروندو ، وهي ترجمة للفظ العربي « نوبة » اى نظام تعاقب فريق من العازفين على عزف قطعة موسيقية » (١) •

ويضرب صاحبنا الامثال بالمنيش « الشـفة في زواجهـا » و « وردة دنكرك » وهما مصوغتان في قالب زجل ، وبمقطعات فرنسية قصيرة شاعت في القرن السابع عشر سارت على طريقة عرفت « بالروندية » •

وليس الامر مختلفا في الاغاني الشعبية الانجليزية ، فازجال دى ميربل التي تتكون من رباعيات ثلاث شـطرات منها باللغة الانجليزية الدارجة ورابعة باللغة اللاتينية ليست هذه الرباعيات المختلطة سوى تقليد لامثالها من ازجال الاندلس • ففي المدحة النبوية المسماة بالاسبانية المدحة دى البندنا الانبي محمد ، توجد اربعة اغصان باللغة الاسبانية الدارجة من قافية واحدة تتغير في كل دورة وخرجة ثابتة باللغة العربية « باحبيبي ياحمد والصلاة على محمد » وفي المانيا نجد ان نظام الخرجة والاغصان في اغاني المنيزنجر وخاصة فيما كان ينشده عومان دردامن • اما في ايطاليا فان ابحاث الكاتب ملياس فاليكروسا وبيزى انتهت الى ان قالب الزجل الاندلسي وجد في نوع الشـعر المسمى بالكنتراستو من امثال منظومة شلو دالكومو ، وفي المدائح • واحسن انموذج له شعر جاكوبوني دى تودى والاغاني الراقصة (لا بالاتا) وتوجد نماذجه في شعر لورنزو دى ميديتشي ، والبوليزيانو وفي المدائح المقدسة التي تشبه منظومات المديح الالهي الاندلسية • وهـذه المدائح المقدسة الايطالية كانت تستعمل في تلحينهـا الحـان غير كنائسية •

ويتصدى العلامة الاسباني منندثبدال لبيان تاثير الزجل العربي على الشعر البروفنسي ، فيقول : ان اول شاعر بروفنسي شـعبي نعلمه هو جيلرمو التاسع دوق اوكتانيا ، بل هو اول شـاعر نعرفه في لغات الغرب جميعا ، له خمس قطع الفت في القـالب بعد عام ١١٠٢ ، تجرى على نحو الزجل الاندلسي ، وفعـل مثله الشاعر سركمون ومركبرو في النصف الاول من القرن الثـاني عشر • واذا كان هذا التركيب قد اختفى فيما بعد الا انه بقى حيا في الغناء الشعبي حيث يستعمل بكثرة في فرنسا وايطاليا في الرقص الشعبي والاغاني الدينية للرهبان الفرنسيسكان في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وفي اغاني الكرنفالات بفلورنسة في القرن الخامس عشر (٢) •

(١) في رايي أن الترجمة الحقيقية للفظ روندو هو « حلقة » وان كان المعنى الذي قصده الكاتب لا يتغير اذ نظام الحلقة في الغناء يقصد به تناوب العازفين على عزف قطعة موسيقية•

(٢) لطفي عبد البديع ص ١١٨ و ١١٩ •

ويقول السير جيب (١) : انه في نهاية القرن الحادي عشر نشأ فجأة في جنوب فرنسا نوع جديد من الشعر تميزه صفات نفسية اجتماعية جديدةوتصوير خيال فني جديد،وليس في الادب الفرنسي السابق دليل قوى يشهد بانه تطور محلي ، وهذا الشعر الجديد كان كثير الشبه بنوع من الشعر المعاصر في اسبانيا العربية ، فمن الطبيعي ان نفترض ان الشعر البروفنسي قد تاثر بالنماذج العربية • وان وجهة النظر القائلة بان شعر التروبادور مستمد من النماذج العربية تجد نصيبها من الصحة • واكد ذلك بكل ثقة جيامبرا باربيرا • وعند احياء دراسات القرون الوسطى في نهاية القرن الثامن عشر ، وعندما كان خيـال الجماهير مشبعا بالاغاني العاطفية الشرقية كانت الفكرة السائدة التي دعا اليها سسموندي وفوريل تؤيد الصلة الوثيقة بين الشعر البروفنسي والشعر العربي •

على ان الشـعر العربي لم يؤثر في الأدب الاوربي من حيث الترتيب والتنظيم فحسب ، وانما اثر من حيث القافية كذلك • فالشعر الاوربي الكلاسيكي لم يوجه الى القافية عناية تذكربخلاف الحال في الشعر العربي منذ اقدم عصوره ، فهذه الظاهرة جعلت كثيرين من رجال الادب يميلون الى الاعتقاد بان القافية جاءت اوربا عن طريق الشرق ، وهذا الرأى هو الذىدفع بعض المتعصبين المتعنتين من رجال الغرب امثال فيلاموفيتس الى محاربة القافيـة في الشعر محتجا بعدم ورودها في الشعر الكلاسيكي من ناحية وعدم استساغتها من ناحية اخرى (٢) •

فاذا انتقلنا من الشكل الى المادة وجدنا الاستاذ جون درابير(٣) يذكر ان النساء العربيات ـ وكن يتذوقن الشعر والادب الرفيع ـ من امثال فريدة وعائشة ولبنى والغسانية ، كان لهن اثر في الادب البروفنسي ، اذ انتقلت حياة المرح التي كان يمارسها نساء العرب الأندلسيات الى اخواتهن وراء جبال البرانس ، وكانجنوب فرنسا موطن السحر والفتنة النسائية والرقص على انغام العود والقيثارة • كما كانت اناشيد الحب في ايطاليا وصقليـة هي النوع المفضل في التاليف • ومن هذه المقدمات الفنية البعيـدة عن روح التعصب نشأ الادب الرفيع في اوربا الحديثة وانعكست روح المرح الاسبانية العربية الخفيفة على العادات الغليظة في بلاد اوربا الشمالية ، حتى اننا لنلمس هـذه الروح في احـدى الاغنيات اللاتينية التي كان ينشدها احد شمامسة اكسفورد بعد ذلك بزمن قصير •

ويذكر الاسـتاذ غارسيا غومس المستشرق الاسـباني (٤) ان شعراء الاسلام من بغداد الى مرسية اقاموا قرونا ثلاثة يتغنون بالحب العذري ويحللونه ويرسمون له المناهج ، وتلك هي الحركة التي انتقلت من قرطبة الى بروفانس جـنوب فرنسـا لتلهم البروفانسيين ما سموه بالعلم البهيج ، والتي اوحت الى جويدو جينزل استاذ دانتي اسلوبه العذب الجميل ، ومع هذا فعندما اخرجت مطابع فلورنسة النص الاغريقي لكلام افلاطون رمى الناس العرب بالاحساس الجاف ومضوا من ذلك الحين يصفونهم بذلك !

ولعل تاثر الفرنسيين بالادب الاندلسي لم يكن عن طريق النقل فحسب ، وانما كان كذلك عن طريق الاحتـلال ، فقد احتـل المسلمون الأندلسيون جنوب فرنسا ، ومع انهم هزموا سياسيا في واقعة «تور» الا انهم لم يلبثوا ان افاقوا من الضربة التي اصابتهم بها شارل مارتل واستردوا مراكزهم السـابقة وسـلم حاكم مرسيلية مقاطعة البروفانس اليهم سنة ٧٣٧ م واستولوا على الارل ودخلوا مقاطعة سان تروبز سـنة ٨٨٩ واوغلوا في مقاطعة الغال وسويسرا سنة ٩٣٥ وروى بعض المؤرخين انهم بلغوا مدينة فز (١) •

ويلاحظ بعض المستشرقين الاوربيين ان هناك صلة قوية بين الحروب الصليبية ومادة الشعر الاوربي ، فيقول الاستاذ جوستاف جرينباوم (٢) ان اول شاعر اكويتاني هو الكونت جيوم دي بواتييه الذي رحل الى الشرق في غزوة صليبية (١١٠١ ـ ١١٠٣ م) قد تاثر شعره من تلك السفرة فاحدثت فيه تغييرا شاملا من حيث الروح والأسلوب ، ذلك انه بعد عودته من البلاد المقدسة اصبح ايقاع اغانيه وهيكلها العام يذكران بالموشح الاندلسي ، ويشير الى هذا المعنى الاستاذ جوستاف لوبون فيقول(٣) : « لم يكن تاثير اداب العرب في الصليبيين صفرا ••• فقد استوحاها كثير من شعراء الغرب وكتابهم فكان سحرة مصر وعجائب الشرق وغودوفرا وتانكريد وغيرهما موضوع قصص مهم للشعراء المتجولين الذين كانوا ينشدونه بين قصر وقصر » •

ويفسر السير جيب سبب تهالك الاوربيين على هذا الادب(٤) بان الحضارة الاوربية في القرون الوسطى كانت قد برمت بالنظم الاكليروسية الضيقة ولم يستطع الاوربيون ان يشبعوا رغباتهم في الادب اللاتيني المحدود فاضطروا الى الالتجاء للعالم الاسلامي الذي كان مشهورا حتى الآن عندهم بالتفـوق الحربي فحسب • فوجئوا بان المسلمين كانوا يبزونهم في ميدان الفكر ايضا ، وبذلك تاصلت جذور الاداب العربية في اوربا الحديثة وشاركت في الطفرة التي عمت فيها في عصر النهضة •

د• محمد مختار القاضي

---

(١) تراث الاسلام ـ الترجمة العربية ص ١٨٣ •

(٢) جورج يعقوب : اثر الشرق في الغرب خاصـة في العصور الوسطى ص ٨٤ طبعة ١٩٤٦ •

(٣) تطور اوربا الفكرى ج ٢ ص ٣٥ •

(٤) الشعر الأندلسي ـ الترجمة العربية ص ٨٢ •

(١) جوستاف لوبون في حضارة العرب ـ الترجمة العربية ص ٣١٥ و ٣١٦ •

(٢) دراسات في الأدب العربي ـ الترجمة العربية ص ٢١٦ •

(٣) حضارة العرب ص ٣٢٨ و ٣٢٩ •

(٤) مقال في تراث الاسلام لأرنولدوجيوم ص ١٤٩ ـ ٢٢٠ •

قصة الأدب الشعبي

ورواد البحث فيه

بقلم : محمد فهمي عبد اللطيف

كلام كثير يردده الكتاب في هذه الايام عن الادب الشعبي والدعوة اليه ووسائل النهوض به ، وان منهم من يعرف هذا الادب ويفهمه . وفيهم من يدعي معرفته وفهمه . وانهم لاكثر عددا واكثر كلاما .

ولقد حفزني الى كتابة هذا البحث كلمة قرأتها لاحد هؤلاء المدعين في تقييم الجهود التي بذلت في سبيل الادب الشعبي والبحث عنه . ومن رأيه ان الرواد الكبار لهذا البحث ثلاثة من الاساتذة الجامعيين هم : الدكتورة سهير القلماوي في رسالتها عن الف ليلة وليلة . والدكتور عبد الحميد يونس في كتابه عن القصة الهلالية . والدكتور عبد العزيز الاهواني فيما كتبه عن الزجل في الاندلس .

وليس مما يعنيني الكاتب وما كتب ، فانما هو ككل ما تنشره الصحف اليومية عن الادب والفن لا يعدو سواد الحبر في بياض الورق وانما الذي يعنيني هو تصحيح هذه الحقيقة في عقول بعض المتعلقين بهذا البحث وتقديرهم ، واعلان حق التاريخ الادبي ، وحق اولئك الباحثين الكبار الذين بذلوا في هذا ما بذلوا من الجهد ونور البصر . وحرام ان تطوى جهودهم ويجحد فضلهم عن علم او جهل ..

وفي الحقيقة ان المستشرقين ـ وخاصة الفرنسيين والالمان منهم ـ كانوا اسبق منا الى العناية بتراثنا الشعبي والاهتمام ببحث هذا التراث في معارضه القصصية والنثرية والشعرية . ففي خلال القرن التاسع عشر تعاقبت دراساتهم وابحاثهم عن الف ليلة وليلة وعن قصص بني هلال وسليم وعن العادات والتقاليد الشائعة في البيئات العربية والاسلامية . وعن الحواديت والاغاني الذائعة بين الجماهير الشعبية ، وعندي ان هذه العناية من اولئك المستشرقين لم تكن لوجه العلم وحده . وانما كانت كذلك تجاوبا مع الاتجاه الاوربي لاستعمار الشرق الاسلامي والاستيلاء على ما فيه من مقومات وطاقات . وكان ان انشات الدول الاوربية في جامعاتها اقساما للدراسات العربية . وكانت هذه الاقسام تعنى بصفة خاصة بدراسة اللهجات والعادات في البيئات الشعبية العربية ولانها كانت تريد تخريج جيل من الدعاة الذين لهم علم بنفسية هذه الشعوب وتقاليدها الاجتماعية . ولديهم القدرة على التفاهم مع ابنائها . والادب الشعبي لا شك منجم لهذه الدراسة ، ومن هنا كانت عناية المستشرقين بدراسة تراثنا الشعبي .

هذا الدافع من اوربا كان يقابله دافع اخر مضاد يحتم على علمائنا التحرج من اثارة هذا الادب الشعبي في اي معرض من معارضه، وفي اي لون من الوانه، لانهم كانوا يعتقدون ان العربية لغة القرآن والدين ، وانها مظهر الوحدة في العالم العربي والاسلامي ، بل انها جنسية كاملة تربط ابناء هذا العالم برباط العقيدة والشعور والاتجاه ، وان الاستعمار الغربي انما يفوق السهام الى مقاتل هذه اللغة والتهوين من شانها بشتى الوسائل للقضاء على هذه المعاني والروابط التي تربط بين ابناء العروبة والاسلام ، ولهذا كان العلماء ورجال الدين يتوجسون من كل ريح تهب من ناحية العامية ، وكانوا يعتقدون ان كل محاولة لبعث ذلك الادب الشعبي العامي انما هي الحاد استعماري في حق العربية واتجاه الى طمس تراثها الفصيح وهو كل شيء في الثقافة العربية الاسلامية .

وشيء اخر كان يعتقده اولئك العلماء ويحملهم على التحرج من اثارة الادب الشعبي . فقد كانوا يعتقدون ان علم العربية مرتبط بعلم الدين ، وليس يصح من هذا العلم الا ما محصه العقل ، وحققه النقل ، واثبتته الرواية الصحيحة . واذن فلم يكن من الممكن ان يقبل هؤلاء العلماء ذلك القصص الشعبي الذي يروي وقائع لا تصح في التاريخ . وعجائب لا تدخل في نطاق العقل ، ومهازل خارجة لا تليق بالمروءة والتصون . ثم هو يجري في لغة نازلة اذا لاقت بمجالس العامة فانها لا تليق بكرامة العلماء ولا يمكن ان تكون شيئا مقبولا في مجالس العلم وندوات الدرس .

وبعد هذا وذاك فما كان البحث الاجتماعي قد نضج في بيئتنا الى حد الكشف عن المشاعر الشعبية ، والى الاهتمام بالبحث عن العادات والتقاليد والاساطير التي تسيطر على مشاعر الجماهير وتوجهها في الحياة التي تحياها على مر السنين . ومن هنا عاش ادبنا الشعبي قابعا في بيئته الشعبية لا يتعداها ، وهو بقدر ما يجد من اقبال العامة وادبارهم يعاني من ازدراء الخاصة واستخفافهم ، فلم يجرؤ اي باحث من الخاصة ان يتناوله بالدرس والمناقشة في اي ناحية من نواحيه .

وفي القرن التاسع عشر جاء المستشرق البريطاني ، ادوار لين ، الى القاهرة واستوطنها عدة سنين وكتب كتابا باللغة الانجليزية عن عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم كما شاهدها . واورد في كتابه عدة فصول عن ملاهي المصريين الشعبية وعن القصص

الشعبي والأغاني السائرة في بيئات الشعب ، كما كتب الدكتور « كلوت بك » الذي استوطن مصر على عهد محمد على تقريرا عن الحياة المصرية ، ضمنه عدة فصول عن عادات المصريين في افراحهم وفي مآتمهم وفي حياتهم اليومية ، وعن قصصهم في محافلهم وسوامرهم ، وعن اغانيهم الدارجة . وقد طبع هذا التقرير في كتاب باسم « لمحة عامة الى مصر » ، ولكنا لا نستطيع ان نسمي ما كتبه « ادوار لين » او « الدكتور كلوت » دراسة في الأدب الشعبي مستكملة لعناصر البحث العلمي الصحيح وانما هو تصوير للحياة بصفة عامة ، وعلى اية حال فقد تضمن ما كتبه كل منهما ملاحظات واشارات قيمة يمكن ان تكون مادة تعين الباحث في الادب الشعبي .

وكتاب ثالث يمكن ان يلحق بما كتبه « ادوار لين » والدكتور « كلوت بك » وقد ظهر هذا الكتاب في اواخر القرن التاسع عشر في جزءين باللغة الفرنسية ومؤلفته « نية سليمة » وهو اسم مستعار للزوجة الأولى لرئيس وزراء مصر الأسبق حسين رشدي . وقد تناولت « نية سليمة » في هذا الكتاب الحياة المنزلية في مصر والعادات السائدة بين سيدات البيوت في زياراتهن واحتفالاتهن وما يجري بينهن عادة من الاحاديث والأسمار والقصص . وهذا الكتاب ايضا لا يمكن ان نعتبره بحثا في الادب الشعبي ، ولكنه لا شك مادة طيبة تفيد الباحث في هذا الادب .

وهناك شيخ من علماء اللغة العربية والدين كانت له يد في مجال الادب الشعبي وهو الشيخ عياد طنطاوي . وقد قلت لك ان علماء العربية والدين كانوا يتحرجون من اثارة ريح العامية والخوض في الادب الشعبي . ولكن الظروف شاءت ان تحمل هذا الشيخ حملا على ان يخوض في هذا المجال . وان ينظر الى العامية على انها مادة للدراسة . فقد طلب من الشيخ عياد طنطاوي ان يدرس اللغة العربية في كلية بطرسبرج في روسيا . وسافر الشيخ في هذه المهمة عام ١٨٤٠ وعاش في روسيا حتى مات بها حوالى عام ١٨٦٢ . ولم تكن مهمة الشيخ دراسة قواعد العربية الفصحى فحسب ، فقد كانت الجامعة الروسية كسائر الجامعات الاوربية تهدف الى تخريج جيل من الدعاة والخبراء الذين يعرفون لغة التخاطب في الشعوب العربية على ما اوضحته لك من قبل . ومن هنا كان على الشيخ عياد طنطاوي ان يؤدي هذه المهمة بقدر استطاعته . وقد شمر الشيخ عن ساعد الجد واقتحم هذا المجال الذي لعله لم يكن في حسبانه فالف كتابا في الحكايات المصرية العامية وهو مخطوط حتى الآن . وتوجد منه نسخة خطية في مكتبة جامعة بلغراد برقم ٧٤٥ . وله في هذا ايضا كتاب آخر بعنوان « احسن النخب في لسان العرب » وهو في العامية المصرية . ويشتمل الكتاب على الفاظ وجمل وامثال ومكاتبات وقصص واغان عامية مع ترجمتها الى الفرنسية . وقد طبع هذا الكتاب في ليبزج عام ١٨٤٨ . وراج بين المستشرقين في الاوساط الاوربية . ولكني مع الاسف لم اطلع على هذين الكتابين . وعلى هذا لا استطيع ان احكم حكما منصفا : هل كان الشيخ عياد طنطاوي في كتابيه جامع مادة في الادب الشعبي او باحثا يفهم ويحلل ويرد الاشياء الى اصولها كما هو شرط الباحث . ولعل هيئة من هيئاتنا الادبية تستطيع ان تحصل على صورة من الكتابين وتعمل على نشرهما واذاعتهما بين الناس فتكون بهذا على الاقل قد انصفت ذلك الشيخ في غربته وتكون قد عرفت ابناء العربية بعلم من الاعلام كان له اثر في روسيا مازال يذكر بالثناء والحمد .

اما اول رائد عربي للبحث في الادب الشعبي يقف امامنا حتى الآن فهو العالم المحقق المغفور له احمد تيمور باشا . والحديث عن عمل احمد تيمور وجهوده في الادب الشعبي يحتاج الى شرح طويل . وهذا هو موضوع مقالنا التالي ان شاء الله .

« محمد فهمي عبد اللطيف »



عبد القادر حمزة في ذكراه

بقلم : محمود الشرقاوي

دروس باقية :

دروس عظيمة عميقة باقية تعلمتها ونقشت على صفحة القلب وامتزجت مع ذرات الدم وعاشت معى حياتى كلها .

دروس عظيمة باقية عميقة نقشت على صفحة القلب وامتزجت مع ذرات الدم فى الصحافة والاخلاص لها والتجرد والاندماج فيها الى درجة الفناء وادراك قيمة القلم وكرامة الكاتب وعزة الكلمة وسطوتها وسلطانها وصولجانها .

دروس عظيمة عميقة نقشت على صفحة القلب وامتزجت بذرات لدم وعاشت معى حياتى كلها فى ادب الخصومة وعفة المجادلة واتخاذ الكلمة هداية ورسالة وكتابة « المقالة » نغما موسيقيا له « سلم » قوامه المنطق والعقل واللفظ الطاهر المهذب والبعد عن الهاترة واللدد والشهوة والاستعلاء والتشامخ .

دروس عظيمة عميقة باقية تعلمتها من هذه « العصا » التى كان يكتبها فى « البلاغ » فيدمى بها جلود خصومه مهما استعلوا واستكبروا وافسدوا وعتوا ، وتهتز منها كراسى الحكم من تحت الوزراء والرؤساء مهما بلغوا من الشموخ وظنوا فى حكمهم طول البقاء ، وفى شعبهم الطاعة والبساطة والغباء .

كان يتمثل لى فى صمته وكلمته ، وسمته ومشيته ، وكبريائه وعزته كانما هو رمز حى قد تجسد يمثل كلمة فولتير العظيمة الخالدة : « وماذا يهمنى ان ليس لى تاج ... اليس لى قلم .. ؟ »

دروس عظيمة عميقة باقية نقشت على صفحات القلب وامتزجت مع ذرات الدم وعاشت معى حياتى كلها فى سماحة النفس وبساطة القلب وطهارة الضمير وايثار المودة واشاعة الحب وجعله رباطا وقانونا وموثقا اقوى وابقى واعمق من كل قانون .

عف اللسان والقلم :

كان عبد القادر حمزة مثلا ما يزال يضرب فى عفة اللسان والكلمة وادب الخطاب والجدل ومن ذكرياتى عنه فى ذلك هذه القصة :

قامت مناقشة بالغة العنف بينه وبين مكرم عبيد ، وكان مكرم اقوى رجل فى حزب الوفد يوم ذاك ، هو الذى يرسم سياسته فى العمل للداخل والخارج ، وسياسة حكومته ، ويتحدث باسمه وكتب مكرم مقالا او القى خطبة اخذ عبد القادر يناقشه فيها ويفندها فقرة فقرة ، فكان يتناول كل فقرة منها بالحديث لم يقول : ومن ذلك نعلم ان مكرم باشا « غير صادق » فى كلامه هذا ايضا . وكان عبد القادر يدعو الى « الاسلوب التلغرافى » الذى يقتصد فيه الكاتب ويركز – مع الوضوح – كأنه يرسل تلغرافا تكلفه كل كلمة فيه مالا . كان يدعو الى هذا الاسلوب ويلتزمه . وكنا نجلس معه فى مكتبه فدخل المرحوم الدكتور زكى مبارك وتناول موضوع هذه المناقشة بين مكرم عبيد وعبد القادر حمزة فقال : انك يا استاذ عبد القادر خرجت عن قاعدتك وتركت مذهبك فى الأسلوب التلغرافى وانت تناقش مكرم . فاصغى اليه عبد القادر بكل انتباهه وقال : كيف ؟.. وذكر له زكى مبارك هذه الكلمات التى اشرت اليها ، فقال عبد القادر : تريد ان اقول ان مكرم باشا « كاذب » ، بدلا من « غير صادق » ؟.. فاجاب الدكتور زكى : نعم ، هاتان كلمتان وتلك كلمة واحدة .. فقال عبد القادر : نعم كلمتان وكلمة واحدة ويجب ان اكتب الكلمة الواحدة بدلهما ، ولكنى تركت هذا الواجب لأمر اوجب منه ، لست غافلا عما تراه من ان معنى الكلمة والكلمتين واحد . ولكن شتان – فى ادب الخطاب – بين ان تقول : فلان كاذب وفلان غير صادق .

وقال الدكتور ، ونحن نعرف طبيعته وعنفه فى الخصومة ، انهم يا استاذ عبد القادر لا يتورعون عن شتمك واختيار اقذع الالفاظ فى خطابهم لك . انهم يقولون عند ذكر اسمك : عبد القادر « الحمزاوى » – وحى الحمزاوى من الاحياء المجاورة للازهر تباع فيه الكانس وادوات النظافة .

وابتسم عبد القادر وهو يقول : يا دكتور زكى هون على نفسك ودعهم يقولون ويكتبون على طريقتهم وباسلوبهم . لن اكون مثلهم ولن انزل الى مستوى لا ارضاه لنفسى ، مهما اشتدت الخصومة ، وسترى لمن تكون الغلبة فى النهاية . وقد كانت له فعلا .

عناد وكبرياء وكرامة :

كان عبد القادر حمزة ، كما يعرفه كل من قرا له ، يمتاز باسلوب منطقى هادئ متزن يخاطب العقل قبل العاطفة ، وكان النحاس – شخصا وزعيما – يريد من مناصريه ان يكتبوا باسلوب اخر يلهب المشاعر ويوجهها الوجهة التى يريدها لنفسه وحزبه . وكان النحاس باشا فى تلك السنة يقضى الصيف فى الاسكندرية ويقيم فى فندق « سان ستفانو » كعادته كل صيف .

وجلس النحاس باشا فى شرفة الفندق وحوله بعض خاصته يقرا عدد « البلاغ » الذى وصل الى الاسكندرية ظهر ذلك اليوم واخذ يطالع مقال عبد القادر حمزة ، والنحاس كان رجلا حادا مندفع العاطفة عصبيا ، فما انتهى من قراءة المقال حتى ثار غضبه ومزق « البلاغ » والقاه ارضا وهو يصيح : ما هذا الكلام الذى يكتبه عبد القادر .. ؟ نريد قنابل ، نريد مقالات ملتهبة ، نريد كلاما من نار ..!

ووصل خبر ذلك الى عبد القادر ، فكان ما لا بد ان يكون ، وما لا يمكن ان يتصور غيره ولا اقل منه من عبد القادر حمزة

العنيد صاحب الكبرياء الشامخ : خصومة قاتلة حتى الموت ، وكانت كذلك فعلا : بقى عبد القادر حمزة بعد ذلك بقية عمره الد الخصوم واشد الناس عنفا في محاربة النحاس ، وعلى رغم صمته وعزوفه كان يكلم كل من يلقاه بحماسة بالغة يوم اقيل النحاس باشا من الوزارة سنة ١٩٣٦ معلنا اياه بالخبر مهنئا له .

وقد كانت فترة هذه الخصومة خصبة خصوبة كبيرة في مجال الصراع الصحفي والسياسي ، للبلاغ ، ومعارضيه من صحف الوفد ودارت فيها مناقشات ومصاولات شديدة العنف ، واثيرت قضايا سياسية بالغة الاهمية ، ولقيت الوزارة الحاكمة يوم ذاك معارضة قوية قل ان شهدتها وزارة من قبل ومن بعد .

ظلام ونور :

وكان عبد القادر حمزة يحس احساسا قويا بما كانت عليه اوضاعنا السياسية والحزبية من السوء .

تحدثت اليه يوما من ايام هذه الفترة — في سنة ١٩٣٣ — في وضع البلاغ وفي شئون مصر السياسية في الداخل والخارج وعلاقتها بالانجليز ، فكان ساخطا كل السخط ، متشائما اعظم التشاؤم ، ولكنه كان صلبا صلابة عجيبة ، قال لي يوم ذاك ، بعد حديث زاخر بالمرارة وفي لهجة اشفقت عليه منها ، هذه الكلمة : نحن ، البلاغ ومصر ، في ظلام ما بعده ظلام ، ولكن النور آت لا شك في ذلك .

عفة اللسان والقلم :

والذين لم يعاصروا عبد القادر حمزة ولم يقرءوا له ، والذين لم يخالطوه او يعاشروه او يعملوا معه ، عسير عليهم ان يدركوا هذا المستوى الرفيع من عفة القلم وادب الخطاب الذى كان يحرص عليه ويلتزمه في كل مايكتب ، وفي حديثه الشخصي ايضا ، مهما اشتدت الخصومة .

والى هؤلاء الذين لم يقرءوا له نورد هذه القطعة الصغيرة مثلا لاسلوبه في المناقشة والجدل وادب الكتابة وعفة الخصومة ، وهو — في نفس الوقت — يحدد فيها مسلكه في النقد والمعارضة ، واسلوبه الذى يرتضيه :

« ... ومع ذلك تحرينا في كلامنا عن هذه الأمور كلها الرفق الشديد والتلطف الشديد ، فلم يجر قلمنا بما يثقل على النفس ويستكره في السمع او ينبو عن الذوق . لان غايتنا هي الاصلاح لا الايلام ، وطريقتنا هي الاقناع لا الايجاع .

وليس في اسلوب التناول الذى نتوخاه مايمكن ان يشكو منه ادق الناس احساسا وارقهم شعورا ، اذ لا جفوة في العبارة ولا عنف في اللفظ ، ولا اغلاظ في القول ، ولا شيء الا الموضوع ووجهة نظرنا فيه مبسوطة ومؤيدة بالحجج والبراهين . فاين سوء النية اذن وفساد الطوية وحب المعارضة للمعارضة ؟ » .

وكم اود لو ان بعض كتابنا اليوم يقرءون هذا ويفيدون منه .

اللغة العربية وسلامة الأسلوب :

وكان عبد القادر حمزة من اشد الكتاب حرصا على اللغة العربية وصحة الكتابة بها وسلامة اسلوبها ، مع هذه البساطة الجميلة الساحرة الخلابة ، وهذا واضح من اسلوبه ، ولم يكن يستعمل او يوافق على استعمال الكلمات الأوربية في الأسلوب العربي الا في اضيق الحدود . وقد سجل له مجمع اللغة العربية هذا الاثر في نشر الكلمة العربية الفصيحة في تابينه الذى سمعه اعضاء المجمع — وكان عبد القادر عضوا فيه سنة واحدة — وفي هذا التابين الذى القاه محمد توفيق رفعت ، رئيس المجمع يوم ذاك ، هذه الكلمات :

« وكان جهاد عبد القادر حمزة الصحفي بعيد الاثر في نشر الفصحى واعلاء كلمتها . اذ كان فقيدنا الراحل في طليعة الكتاب الذين حرصوا فيما كتبوا وما نشروا على الديباجة العربية » .

وهذا حق ، فقد كان عبد القادر ، مع هذا الاسلوب الذى رايناه يبلغ غاية الغايات في البساطة والخلابة وفي الدقة البارعة وسلامة المنطق وعفة القلم وشمول الاحاطة ، لم يكن متهاونا في الحرص على الاسلوب العربي السليم والبعد عن الدخيل . ولكنه لم يكن متزمتا ولا ضيق الافق .

كانت في المحيط الادبي والصحف في وقت من الاوقات مناقشات وجدل حول الالفاظ الاجنبية وادخالها في الاستعمال العربي كما هي ، او البحث عن الكلمات عربية تؤدى دلالتها ولو على طريق المجاز او الكناية حتى يصقلها الاستعمال فتصبح حقيقية الدلالة في معاني هذه الكلمات الاجنبية . فقال عبد القادر رايه في هذه الكلمات :

« هذه الكلمات يجب ان تدخل العربية وتستعمل فيها كما هي حتى يستسيغها الذوق واللسان العربيان . فكلمة « اوتومبيل » مثلا يجب ان تستعمل بلفظها للدلالة على هذه الاداة الاوربية التي نستعملها والتى لم يكن يعرفها العرب ، ولا يصح ان تستعمل كلمة « سيارة » بدلا منها . ثم قال : صحيح ان كلمة « السيارة » وردت في القرآن الكريم ، في سورة يوسف ، وهي تدل في الآية على « السائرين » في الطريق ، ولكني لا اوافق على استعمالها بدلا من الكلمة الاوربية « اتومبيل » لما في ذلك من الاشتباه ولان هذه الكلمة اصبحت عالمية .

وقد يكون عبد القادر حمزة مخطئا في اختيار المثل ، فقد اصبحت كلمة « سيارة » هي المستعملة في الكتابة دون اشتباه ، ولكن رايه في جوهره سليم .

مثل وقدوة :

هذا المثل الرفيع من ادب الكتابة وعفة القلم وشرف الخصومة كان عبد القادر حمزة يحرص عليه كل الحرص ، ليس فيما يكتب هو فقط ، بل في كل ما ينشره محرروه وغيرهم ، كان هذا المستوى « قانونا » يحرص عليه ويلتزمه كل من يعمل معه او يكتب « للبلاغ » .

في اثناء عملي في « البلاغ » راى عبد القادر ان يزيد صفحاتها الى ست عشرة صفحة ، واحدة منها للسينما والمسرح ، واختار لتحرير هذه الصفحة شابا طيب القلب ، ما يزال يعمل في الصحافة الى اليوم . وفي ضحى يوم من الأيام تحدثت ممثلة فاتنة كانت في ذلك الوقت نجمة المسرح الأول واكثر ممثلاته نجاحا وشهرة ، تحدثت هذه الممثلة مع عبد القادر في التليفون قائلة : هل قرات يا استاذ عبد القادر صفحة السينما والمسرح في البلاغ امس ... ؟ فقال : ربما قراتها وربما فاتني منها شيء قبل النشر ، هل فيها شيء اغضبك ... ؟ فقالت : اقراها وستعرف انت ،

واترك لك الحكم . وقرا عبد القادر ما نشره المحرر الفنى للبلاغ فوجد فيه تلميحا الى هـــذه المثلة غير كريم ، ولكن قل من يدركه .

ورايتا عبد القادر بعد لحظات واقفا على باب حجرته محتقن الوجه يكاد ينفجر من الغضب ، ثم نادى باعلى صوته حتى سمعه كل محررى البلاغ واسرعوا الى ابواب حجراتهم ينظرون ويعجبون نادى عبد القادر ، باعلى صوته ، وقل ان كان يعلو له صوت ، : قل للصراف ان يعطى هذا «الولد» حسابه الآن ويطرده ، ولا تجعلنى أرى وجه هذا « الكلب » مرة واحدة بعد ذلك أبدا .

ونفذ مدير « البلاغ » امر عبد القادر فى لحظات ، وخرج المحرر الفنى بعد دقائق ، وبقى عبد القادر بعد ذلك طول يومه ساخطا واضح الغضب .

وكان هـــذا الشاب ابنا لصـديق من اعز اصدقاء عبد القادر وواحد من كبار الاعيان والأعضاء البارزين فى الحزب السياسى الذى كان يناصره « البلاغ » .

ولم يسمع احد قبل هذه المرة ولا بعدها من عبد القادر حمزة كلمات « الولد » و « الكلب » ولا ما هو اقل منها عنفا .

عميد صحافة الراى :

وكان عبد القادر حمزة عميد « صحافة الراى » فى عصره وعند ما وضع اول تنظيم للصحافة كانت اول المحاضرات الصحفية فيه لعبد القادر ، فالقى محاضرة شاملة كاملة مدروسة فى الجمعية الجغرافية ـ سنة ١٩٣٦ ـ كان موضوعها : « صحافة الراى » .

وليس معنى ذلك انه لم يكن يدرك قيمة الخبر الصحفى ، فقد كان يتحرى بنفسه عن الأخبار ، ويتصل بمصادرها ، ويتابعها، ويراجع الخبر الذى يشك فى صحته او يدرك اهميته ، كما كان يكتبها احيانا بنفسه . وكثيرا ما كان يناقش « المخبرين » فى الأخبار التى يشتغلون بجمعها من الوزارات والدواوين ويحاسبهم، وقد يشتد فى حسابهم اذا قصروا او فاتهم خبر او سبقت البلاغ بخبر فى صحيفة اخرى ولو كانت اجنبية تصدر فى القاهرة .

عظمة رجل :

كلما ذكرت عبد القادر حمزة بسمته الوقور ، واناقته البادية ، ومشيته الرزينة ـ ويمناه دائما فى « جيب البنطلون » ـ ونظراته الثابتة لا يكلم احدا ولا ينظر الى احد ، وكلما ذكرت كفاحه وصبره وصلابته وعناده ، وشموخه وشممه ، ذكرت ذلك الشعر المحكم الذى ينفجر قوة وعزة ، والذى يكاد صاحبه ان يتحدى به ، بقوة نفسه ، جميع القوى . ذلك الشعر من مقصـــورة ابن دريد البارعة العظيمة :

لست ، اذا ما بهظتنى غمـــرة ،
ممن يقول : بلغ السيل الزبى
ولا اقول ، ان عـــرتنى نكبة ،
قول القنوط : انقد فى البطن السلى
لا تحسبن ، يا دهر ، انى ضارع
لنكبة تعـــرقنى عرق المدى ...
مارست من لو هوت الأفلاك من
جـــوانب الجو علیــــه ما شكا
وظن ، لو كانت له الدنيا بما
فيها ، فزالت عنـــه دنياه ، سوا
وان ثوت بين ضـــلوعى زفرة
تملأ مابين الرجا الى الرجا
نهنهتهـــا مكظومة حتى يرى
مخضـــوضا الذى كان طغى

« محمود الشرقاوى »

المسلمون في مفترق الطرق

بقلم: محمد عبدالله السمان

هذا عنوان كتاب فكرت في تاليفه منذ اكثر من عشرة اعوام ، وبعد ان وضعت له تخطيطا شاملا ، ونسقت موضوعاته ، ورتبت عناصره ، صدمتني حقيقة مرة ، واكتفيت بان ادع فكرته في طيات نفسي ، فلا وجود لمراجع عربية يمكن الرجوع اليها ، ولا مراجع أجنبية مترجمة تمكن الثقة فيها ، والاطمئنان اليها ، ولم يكن من اليسير ان اقوم بجولة في شتى بلاد العالم الاسلامي لأتعرف - عن كثب - على حقيقة أوضاعها الدينية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، واقف على حقيقة اهدافها وآمالها .

وثارت الفكرة في ذهني منذ أيام ، حين وصلتني رسالة من طالب عراقي ، يستعد لتحضير رسالة موضوعها : « العالم الاسلامي ومكانته في موازين السياسة الدولية » ، وطلب مني ان ادله على أسماء المراجع العربية التي يمكن الاعتماد عليها في اعداد رسالته ، ولا سيما ما يختص منها بالاحصاء الدقيق عن عدد المسلمين في العصر الحديث ، وكان أن صدمتني الحقيقة المرة القاسية مرة أخرى .

والعجيب أن الأخ الطالب يحسن الظن بالمؤتمر الاسلامي ، والمجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ومجمع البحوث بالأزهر ، وجمعية الشبان المسلمين، اعتقادا منه أنه من الضروري أن تكون لدى كل من هذه المؤسسات دائرة معارف عن بلاد العالم الاسلامي ، واحصاء دقيق واف في شتى جوانب حياة المسلمين فيها ، وشكر الله للأخ حسن ظنه بمؤسساتنا .. وكفى .

كان بودي ان اذكر له مثلا مؤلف الدكتور عبد الرحمن زكي : « المسلمون في العالم » ، وهو في اكثر من سبعمائة صفحة ومطبوع في عام ١٩٥٨ ، الا أن هذا الكتاب لا يروى غلة دارس ، ولا يلبي حاجة باحث ، ولا يلم الماما دقيقا بكل البلاد الاسلامية ، والأقليات الاسلامية في غيرها ، صحيح انه غني بالأرقام في تعداد المسلمين ، ولكنه تأثر باحصائيات مشوبة ، فضلا عن انه لم يعن العناية المطلوبة بالأحوال الاجتماعية والسياسية والفكرية ، وغلب على مؤلفه السرد التاريخي .

كما كان بودي أن أحيله الى كتاب « الاسلام في المشارق والمغارب » للدكتور جمال الدين الرمادي ، الذي صدر ضمن مجموعة « كتاب الشعب » عام ١٩٦٠ ، ولكن هذا الكتاب قد يصلح لطلاب المرحلة الاعدادية ، ولكنه لا يصلح مرجعا لاعداد رسالة جامعية ، ففيه من السطحية والشكلية ما فيه ، الى جانب المتناقضات العجيبة ، أما تحري الدقة في تقييم أحوال بعض البلاد الاسلامية ، فشيء لم يفكر فيه المؤلف .

انه مثلا يقول عند الحديث عن اليمن :

« ولما تولى الامام أحمد اليمن حقق كثيرا من النظم السياسية الرشيدة ، وفي اليمن ستمائة مدرسة اولية ، كما توجد مدارس ابتدائية في جميع المدن » وبالطبع الواقع غير هذا دون جدل .

ويذكر في مجال الاحصاء أن تعداد المسلمين في الكنغو البلجيكي ٢٫٥٢٢٫٠٠٠ أي اكثر من مليونين ونصف المليون ، فاذا رجعنا الى كتاب الدكتور عبدالرحمن زكي وجدنا أن عدد المسلمين هناك لايزيد على سبعين الفا .

ولا شك أننا اليوم امام معضلة في أيسر مهمة نريد تحقيقها ، وهي عمل احصاء شامل دقيق عن عدد المسلمين ، وسر المعضلة هو تقصيرنا الشائن من جانب ، واعتمادنا من جانب آخر على المراجع الأجنبية التي لا تتحرى كثيرا النزاهة ولا الدقة ، وامامنا أمثلة كثيرة ، فالمسلمون في الصين تذكر المصادر الصينية أن عددهم ما بين خمسين وأربعين مليونا ، في احصاء عام ١٩٤٧ ،ويذكر أطلس التاريخ الاسلامي طبعة برستون عام ١٩٥١ أن عددهم ثلاثة وعشرون مليونا ، كما يذكر الأطلس الجديد للارساليات طبعة

عام ١٩٥١ أيضا أن عددهم لا يزيد على تسعة ملايين ويعقب الدكتور عبد الرحمن زكي بأن التقدير الصحيح ما بين خمسة عشر وعشرين مليونا .

وذكر المرحوم شكيب ارسلان في تعليقه على كتاب : « حاضر العالم الاسلامي » أنه لما وقعت الفتنة بين الصين واليابان من أجل منشورية أبرقت الجمعية الاسلامية في الصين الى دوائر أوربا ببرقيات احتجاج باسم خمسين مليون مسلم بالصين ، ووردت برقيات من طوكيو تزعم بأن عدد مسلمي الصين خمسة عشر مليونا فقط .

هذا مثل واحد من أمثلة كثيرة ، وأمامنا غيره الكثير ، فنحن الى اليوم لا نتمكن من احصاء دقيق للمسلمين في لبنان وفي الحبشة وفي روسيا ومعظم بلاد أفريقيا السوداء .

وليس أمام الباحث الا أن يعتمد على التخمين ، أو يرجع الى المصادر الأجنبية ، ومعظمها : اما من وضع المستشرقين ، واما من وضع المبشرين ، وكلا الطرفين لا يضع نصب عينيه النزاهة ، ولا تعنيه الدقة في المقام الأول ، فنحن دأبنا منذ سنوات على أن نذكر أن المسلمين اليوم أكثر من أربعمائة مليون مسلم ، فاذا وجدنا كتاب « يقظة العالم الاسلامي » لفرتو يحصيهم بمائتين وخمسين مليونا ، فلا يسعنا الا أن نقف موقف الحائر القلق .

والمشكلة لم تزل قائمة ، أليس من الواقع المر ، أن يعنى الاجانب من المستشرقين والمبشرين العناية التامة في مؤلفاتهم بشئون الاسلام والمسلمين، ونحن المسلمين نكتفي بالتهام هذه المؤلفات ، ونضطر الى الاعتماد عليها ، ونعطي أنفسنا حكم المضطر الذي لا اثم عليه ؟؟

ان « أطلس التاريخ الاسلامي » هو الوحيد بين أيدينا ، وهو بكل أسف من وضع علامة أمريكي هو « هاري هازارد » ولو لم يترجم الى العربية في القاهرة بمساهمة من مؤسسة امريكية هي مؤسسة «فرانكو» لظل الناطقون بالضاد محرومين منه . كم مؤلف ضخم وأجنبي صدر في الاعوام الاخيرة ، كلها يهتم بشئون الاسلام المعاصر ؟ ومؤلفوها ممن يجب أن نقف منهم موقف الحذر :

كتاب : « داخل أفريقيا » وكتاب « داخل آسيا » لمؤلف امريكي هو « جون جنتر » وكتاب « الاسلام في العصر الحديث » لكاتبة المانية هي : « السا ليختنستادتر » التي قضت في بلاد الشرقين الأدنى والأقصى ثلاثين عاما ، وكتاب « الشرق الأوسط في العصور الا.لامية » وهو في سبعمائة صفحة ، ومؤلفه « سدني فيشر » استاذ التاريخ بجامعة « أهيو » بامريكا ، وكتاب « الاسلام والجماعة المتحدة » ومؤلفه « مونتجومري وات » عميد قسم الدراسات العربية بجامعة أدنبره ، وكتاب : « يقظة العالم الاسلامي » وهو جزءان ومؤلفه « ف . و فرتو » وكتاب « كفاح الشرق الاسلامي » ومؤلفه « هانس رود » وكتاب : « الاسلام في أفريقيا الشرقية » ومؤلفه مبشر هو « الدكتور ليندون هاريس » وكتاب « الاسلام في التاريخ الحديث » ومؤلفه « ولفريد كانتويل سميث » استاذ الدراسات الاسلامية بجامعة مونتريال ، وكتاب « المسلمون السود في أمريكا » ومؤلفه القس الأمريكي « أريك لنكولن » وكتاب « الدين والشئون السياسية في باكستان » ومؤلفه عضو في قسم الدراسات السياسية المتخصصة لمسائل الشرق الأوسط والشرق الأدنى ، هو « ليونارد بايندر » ثم دور « الاسلام في مستقبل أفريقيا » وقد تناول هذا الموضوع عديد من كتاب الغرب .

ولسنا نذكر هذه الكتب على سبيل الحصر ، فهناك عشرات الكتب ، عنيت عناية تامة بالاسلام والمسلمين في شتى أحوالهما ، ولكن الذي نود أن نقوله : اننا لم نزل متخلفين في العناية بأخص مقومات حياتنا ، ولا يمكننا أن نتلافى هذا التقصير الا اذا اتجهت الدوائر الاسلامية الى وضع دائرة معارف عن الاسلام والمسلمين في العالم ، بأقلام اسلامية تتحرى الانصاف والدقة ، ولا تخضع لاتجاهات سياسية ، ولا تتأثر بخلافات لم تزل قائمة بين كثير من دول الاسلام ، على أن يصدر ملحق في كل عام يستوعب ما جد في العالم الاسلامي .

ان هذه المسئولية تقع على عاتق المؤتمر الاسلامي، وعاتق المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، وعلى الأخص عاتق الازهر وفيه مجمع البحوث الاسلامية ، وادارة للبعوث الاسلامية ، فالازهر يستطيع عن طريق مبعوثيه المنتشرين في سائر البلاد الاسلامية أن يؤدي هذه المهمة خير أداء ، اللهم الا اذا كان الأزهر في حاجة الى من يقول له أولا : صح النوم ، وفي استطاعة العالم الأديب المهندس أحمد عبده الشرباصي نائب رئيس الوزراء لشئون الأوقاف والأزهر ، أن يكفينا ويكفي الأزهر هذه العبارة بتوجيه منه الى الازهر الموقر .

« محمد عبد الله السمان »

أنا القاتل

نقد وتحليل : محمد عبد الفتاح أحمد

للأستاذ : محمود تيمور

لقد أثار انتباهي – وأنا أقرأ للأستاذ محمود تيمور – شيء يميزه عن سواه من كتاب القصة القصيرة . فكلما وقعت تحت يدي أقصوصة له ، أجد أنه يتجه بكل اهتمامه إلى تصوير شخصيات تعاني صراعا ما حيث تتجاذبها قوتان، فتكون الشخصية منهوكة القوى تحت وطأة هذا الصراع .

والأقصوصة « أنا القاتل » تدور هي الأخرى حول شخصية غير سوية ، وقد قدمها لنا الكاتب في آخر ساعات حياتها حيث نتتبعها في جزئيات حياتها ، فعشنا انفعالها وأحسسنا بكل نبضة من نبضاتها . وهذا عن طريق التداعي الحر لأفكار الشخصية أو « المنولوج » الداخلي لها .

فما تجربة هذه الشخصية غير السوية إذن ؟

« لقد أحس هذا القاتل أنه تافه . وقد فشل في مجرد جذب انتباه الناس إليه حتى بلغ من تفاهته أنه حرم احتقار الناس إيا .. وازدراءهم به ، ولم يشرفه أحد بصفعة ، أو ركلة أو بصقة تشعره بأنه إنسان كسائر الناس . فالحشرة في مكنتها أن تعض أو تلسع ، في مقدورها أن تضر ، ومن ثم يكرهها الناس ويخشونها ، ويقيمون لها وزنا واعتبارا . أما بطلنا فهو أقل من الحشرة شأنا ، وأوهن قدرا ، وهو لا يسيء إلى أحد ، وليس من شيمته أن يهب الخير لكائن ما . هو لا يحب ولا يكره . فلم إذن يرغب إلى الناس في أن يهبوه محبتهم أو يمنحوه كرههم؟ فهو يرى أن هذا حق وعدل أن يحظى منهم بذلك الإهمال !

وظل يحيا تلك الحياة المتوحشة حتى وقعت عينه يوما على خبر بارز في الصفحة الأولى يعلن اغتيال السيدة « م » سيدة المجتمع الأولى التي كانت بالغة الحسن، موفورة النشاط ، سخية اليد ، على رأس كل مشروع لـــــبري ملحوظ ، دارها تغص بالعظماء ، وندواتها عامرة دائما بكل ما يبعث البهجة والإيناس .

لقيت هذه السيدة مصرعها بيد مجهولة ، واكتنف قصة مقتلها غموض محير . فليس من أثر للسرقة ، وليس ثمة من باعث على الانتقام، فالكل يوليها محبته وتمجيده .

واستهوت « قضية القتل » بطلنا فمضى يواصل قراءتها في الصحف ، ولم يفلت منها شاردة أو واردة ، حتى استوعب دقائقها واستبطن خفاياها ، واندمج في أحداثها ، فأحس كأنه واحد من أبطالها .

والذي أثار اهتمامه كله ، شخصية « القاتل » وما يحللها من غموض . ولقد أوشك المحقق أن يعلن إفلاسه ، ويحفظ القضية ، مسندا تهمة القتل إلى مجهول .

وفي يوم وهو يتابع أخبار القضية انسرح به الخاطر يقارن بين حياة تلك السيدة في حفلات السراة ، وسهرات المجتمع ، وكيف كانت تتألق في تلك المجامع وبين حياته التي لم تبد له إلا في صورة كابية بليدة ، تبدو حتى تتزايل مستخذية ، متخاذلة . وهنا تقفزت إلى خاطره حادثة وقعت له منذ أعوام ، إذ اشتد به الضيق يوما لما يعانيه من وحشة وإقفار ، فسار على غير هدى ، مثقل القلب يستبد به يأس وإذلال حتى وجد نفسه على جسر قصر النيل ، ومثل بجوار الحاجز يرمق النهر مضطربا بأمواجه . وطالت نظراته في الماء المتدفق ، وأحس كأن قوة خفية تنبعث من النهر فتجذبه إليه ... وبدأ يفقد وعيه ، ترنح ، وأوشك أن يتهاوى في الماء ... وإذا بيد قوية تشده من الخلف ، وثاب إلى رشده، فتبين له أن رجل الشرطة ممسك بذراعه يهزه .. وما أسرع أن تجمع الناس حولهما ، وهم يحملقون في وجهه ، ويهمهمون : لقد كان مزمعا الانتحار ....! وأخلاه الشرطي من يده وأخرجه من الزحمة وسايره وقتا وهو يلقي إليه بالنصيحة تلو النصيحة راجيا له من الله الهداية والغفران .

فكانت المرة الأولى في حياته أن يلحظ الناس له وجودا ، ومبعث هذا أمر واحد : هو أنه حاول أن يخرج من تفاهته بإقدامه على الانتحار .

وهنا صمم على أن يحطم قوقعته ، ويبرز إلى عالم النور يجتذب إليه الأنظار ، ويلهب نحوه الأشواق ، ويسوي من شخصيته بطلا

من الإبطال . فليمزج حياته اذن بحياةالسيدة « م » سيدة المجتمع الأول ، تلك التى كانت فى موتها أعظم شأنا منها فى حيـــاتها ... لماذا لا يحشر نفســـه فى قضيتها فيكون هو قاتلها ...!

نعم هو قاتلهـــا ... قتلها فى نوبة من نوبات الغيرة الرعناء ... فقـــد كانت تلك السيدة العظيمة خليلة له ..! كانا عاشـقين متيمين يهيم كل منهما بصاحبه هيام جنون ، وكانا يلتقيان فى الخفاء مغـالين فى الحيطة والحذر ، فلم يكتشف سرهما أحد ... ويوما وقع فى وهمه أنها قد وهبت نفسها لسواه ، فثارت ثائرته ، فنهض من فوره وقد أحس كان بركانا قد تفجر بغتة فى كيانه ، وانطلق يعدو فى الطريق وهو يتصـــايح مرددا فى هيجة عارمة : أنا القاتل ... أنا الذى قتلت السيدة « م » .

واخيرا وبعد حين وجد نفســه أمام المحقق ورجال الشرطة تحدق به من كل جانب،وجمع كبير من عامة الناس يتزاحمون من حـــوله متطلعين اليه . واصبح تحت الأضواء ،وصور أنباء الصحف وتعليقاتها .

وحين طلب منه المحقق أن يروى له كيف قتل الســيدة « م » لم يستعص عليه القول ، ومضى يتكلم فى ثقة ، وقد انطلق به الخيال كل انطلاق :

فقد اقبل عليها كمألوف العـــادة طلق المحيا ـ وقد بيت أمر قتلها ـ فهرعت اليــه فى شوق تدلى فمها المكتنز الوردى من فمه ، فما أسرع أن احتواها فى أحضـــانه مطوقا جسدها الريان بذراعه ـ وقد أخفى النصل المسنون فى كمه ـ والتحما ـ دون كلام ـ فى قبلة عنيفة ، قبلة تكاد تتمزق لها شفاههما المتضرمة . وفيما هما يســـتمرئان متعتهما السحرية . واجفانهما مسبلة . وأنفاســـهما متصلة ، غيبّ النصل المسنون فى ظهرها حتى لم يبق منه الا مقبضه ، فقد غيبه فى مهـل ومهارة وبراعة واحكام . فلم تستشعر له ألما، واستيقن أنها فارقت الحياة ، بيد أن شفتيهما ظلتا ملتحمتين ، وجسديهما ظلا متعانقين...

وكان المحقق يصغى الى حديثه وهو فاغر فاه فى دهشة وعجب بل كان هو نفسه يستمع الى اقواله وهو فى غمرة من حيرة وذهول... أكان حقا هو ذلك المتحدث اللبق الذى راح يصوغ من صيد أوهامه قصصا كأنها من واقع الحياة ؟! وراعه تفتق ذهنه واتساع أفق خياله ... حقا انه لعظيم ، عظيم لانه ألقى بالقنبلة فى وجه الناس ، فما اسرع ان تلقفوها فى اكبار وتمجيد .

هذه هى التجربة،وقبل أن نتناول شخصية البطل بالنقد والتحليل نحـــاول أن نسأل سؤالا :

ما الهدف الذى أراده تيمور من أقصوصته هذه ؟

ويمكن ان نجيب على هذا السؤال من نص القصة ، وبجملة جاءت فى خاطر البطل وهى :

« ان العظيم ليؤثر أن يحيا ساعة واحدة ، تحيط به هالة المجد والفخار ، على أن يعيش العمر ، مغمورا يبتلعه الضياع والنسيان » .

وتيمور فى ايراده هذه التجربة يريد أن يضع أيدينا على مشكلة المشاكل عند الانسان الى « الحاجة الى تأكيد الذات » متفقا واتجاه العالمين « سنج » و « كومب » .

وعلى أساس ما سبق نجد أن الهدف الذى اراده تيمور من الأقصوصة هو هدف اجتماعى نفسى .

وأول ما يلفت نظرنا بعد الانتهاء من قراءة أقصوصة « أنا القاتل » هو أننا لا نستطيع ان نلمح بعد البطل الجسمى أو كيانه المادى العضوى كما لا نستطيع أن نلمح بعـــدها الاجتماعى أى الظروف الاجتماعية التى أحاطت الشخصية وهى تتصارع مع الاشخاص والقيم الاجتماعية وهى تعيش حياتها ، أما البعـــد النفسى لها فقد اهتم به الكاتب كل الاهتمام وأبرزه فى دقة فائقة وفن يدعو الى الدهشـــة والاعجاب :

وقبل أن نناقش تقصير الكاتب فى رسمه للبعدين : الجسمى والاجتماعى للشخصيـــة ينبغى أن نلفت النظر الى أهمية دراســـــة الشخصية فى أبعادها الثلاثة السابق ذكرها.

فالبعد الجسمى أو الكيان المادى المتصـــل بتركيب الجسم للشخصية يلون ـ بلا جدال ـ نظرتها الى الحيـــاة ، ويؤثر على تطورها الذهنى ، واتجاهاتها النفسية .

والبعدالاجتماعى الذى تظهر فيه كل الظروف الاجتماعية التى تعيش فيها الشخصية ، تلك الظروف التى تتفاعل معها الشخصية،وتصطدم بها ، أو تنفلت عنها ، وتتأثر بها . ثم ان البعـد النفسى للشخصية هو ثمرة بعديها الآخرين ، ولا يمكن أن تفهم دوافع سلوك الشخصية أو معانى انفعالاتها الا على ضوء البعدين : الجسمى ، والاجتماعى .

والاستاذ محمود تيمور من الكتاب الممتازين الذين يستطيعون ـ دون جهد أو تكلف ـ أن يجلوا دوافع سلوك شخصياتهم بنتائج التفاعل الاجتماعى ـ اقول يستطيع هذا بقدرة فائقة وهذا باستخدام الجمل القصار المشحونة بظلال ايحائية عميقة .

ومـــا يدل على ذكاء تيمور الفنى أنه لم يجعل بطله يسقط فشله على الآخرين أو على موضوعات خارج ذاته ، لأن عمليـــة الاسقاط تساعد الانسان ـ الى حد ما ـ على الاحتفاظ بكيانه وتوازنه النفسى ، ولو انه فعل ذلك لما تم الحدث وفق ما رسم وأراد ، ولكن تيمور العبقرى جعل بطله يتخلى عن عملية الاسقاط، ويرتد الى داخل ذاته فلا يرى عيبا فى أحـد الا فيها ، فاصبح بذلك متعصبا ضد نفسه .

ومن تلميحات تيمور الذكية التى تدل على فهم أساليب التفكير النفسية لشخصياته أنه عرض لنا الأقصوصة من خلال أفكار البطل ، وهذا يوحى لنا أن البطل كان يعيش حياته داخل ذاته غارقا فى دنيا الأحلام ، أحــــلام اليقظة يحقق فيها كل ما يصبو اليــــه ولم يستطع تحقيقه فى دنيا الواقع ، والدليل على ذلك حين نسمع بطلنا يقول : «عدت الى قوقعتى المنبوذة ، قوقعة التفاهة والخواء ...! » وفى موضع آخر يقول : « فلم لا أحطم اليوم هذه القوقعة وأبرز الى عالم النور ...؟ » .

وهـكذا نرى أن تيمور قد أعطانا شخصية نموذجية تعانى القصور (عقدة النقص)،وبقى أن نسأل سؤالا هاما هو : ما منطق تيمور الذى اتبعه فى تطور الحدث ؟ وهل هذا المنطق يتفق والأصول السيكلوجية لمن يعانى القصور ؟

وقبل أن نجيب نحب أن نلفت النظر الى أمر هام وهو أن تيمور لم يعط لبطله اسما، وهذا يدل على أصالة فنية فيــــه ، اذ أنه لم يقصد الى سرد قصة زيد من الناس ، ولكنه يريد أن يعالج ـ كما أسلفنا ـ مشـــكلة انسانية يعانيها عدد غير قليل من النـــاس . كذلك لم يسم شخصية السيدة « م » ، لانه يرمز بها الى الحاجات الاجتماعيـــة النفسية التى يسعى الناس الى اشباعها كالحاجة الى الانتماء والى القوة ، والســـيطرة ، والأمن ،

والتقدير والمركز، وما الى ذلك ، الا أنها حاجات ضرورية للانسان لتشبع الحاجة الاساسية وهي الحاجة الى تأكيد الذات .

والآن نفرغ الى الاجابة على ما طرحناه من أسئلة .

فالبطل يعاني القصور ، لانه فشل في تأكيد ذاته اجتماعيا ، فاتجه الى داخله يعيش في أحلام اليقظة يحقق فيها ذاته ويؤكدها مما أدى به الأمر – لاشعوريا – الى الشعور بالاثم . وهذا ما يقلقه ويعذبه ، فاحتقر ذاته ، وأدى ذلك الى صراع رهيب ، ولكن ها هو ذا يقع نظره في الجرائد على خبر مصرع السيدة (م) سيدة المجتمع الأولى ثراء وفتنة وصيتا مدويا ، فهي قد نجحت فيما فشل هو فيه ، فأحس تجاهها بالحقد احساسا لاشعوريا ، وأعجب بمقاتلها ، فهو – في رأيه – ذو عبقرية اجرامية تدعو الى الاعجاب . واعجابه هذا بعبقرية القاتل يرجع لتساويهما في الغموض والمجهول ، ولأنه قتل امرأة دخلت المجتمع الذى عجز هو عن دخوله . والدليل على ذلك أنه انسرح به الخاطر في أجواء فساح ، فطفق يعرض صورا من حياة تلك السيدة في حفلات السراة ، وسهرات المجتمع ، وأسواق الخير ، والمبرات وكيف كانت تتألق في تلك المجامع تألق اللآلئ الفريدة على صدور الحسان ، ثم انعطف الى حياته يعرض صورا منها ، فاذا هي صورة كابية بالية لا تكاد تبدو حتى تزايل مستخذية متخاذلة .

فكان هذه المقارنة التى عقدها في أحلامه بين حياة تلك السيدة وبين حياته هو ، جعلته يحس بالمرارة والفشل ، فتزداد كراهيته لذاته ، لأن حياة السيدة (م) تخطف الأبصار وتهز المشاعر ، بينما هو حياته ليس لها كيان تتميز به ، فهي ضائعة أبدا في خضم الحياة المتدفع .

*

فيالها من مرارة مرة تلك التي أحس بها البطل .

ألم يستطع يوما أن يجذب انتباه الناس ؟

نعم ، فقد حدث ذلك مرة .. ولكن متى ؟ وكيف ؟

ذلك حين استطرد به الخاطر الى الماضي ، الى التجارب السابقة ، فقد وقعت له حادثة منذ أعوام . يوم أن اشتد به الضيق ، لما يعانيه من وحشة وافقار ، فقد قضى نهاره كله أجمعوا امرهم أن يقاطعوه فسار على غير هدى ، منقبض القلب ، يستبد به يأس واذلال . وألفى خطاه تدفع به الى جسر قصر النيل ، ومثل بجوار الحاجز يرمق النهر مضطربا بأمواجه .. وطالت نظراته في الماء المتدفق ، وهنا حدث صراع داخل نفسه بين الرغبة القوية في أن يساير تيار الحياة المتدفقة وبين عجزه ، فأحس كأن قوة خفية تنبعث من النهر فتجذبه اليه ، فسلك سلوكا لاشعوريا ليسير مع التيار ، أى تيار متدفق ، ولو تيار يذهب لم يبادله فيه أحد من قول ، وكأن الناس قد به الى الجحيم ، وبدأ يفقد الوعي ويترنح ، وأوشك أن يتهاوى في الماء .

ولكن يد الشرطي تنقذه ، ويتجمع الناس ، ويصبح محور اهتمامهم وتعليقاتهم .

فها هي تجربة خاضها ، ومن نتائجها أنه أحس للمرة الأولى في حياته أن الناس قد أحسوا بوجوده ، ومبعث هذا أمر واحد هو أنه حاول أن يخرج من تفاهته بإقدامه على الانتحار .

وتذكره لهذه التجربة كان بمثابة رد الفعل الذى أثار له خطة المستقبل مما جعله يقوم بعمل جبار يغير مجرى حياته التافهة .

فلم لا يحطم اليوم هذه القوقعة التي تحصن بها ويبرز الى عالم النور ، عالم الشهرة الذى يريده في اصرار ، ليجتذب اليه الانظار ويسوى من نفسه بطلا من الأبطال .

وهكذا وجه تيمور – في عبقرية فذة ووفق المنطق السيكلوجي – الحدث دون تكلف او فجاجة .

ولكي يزيدنا تيمور اعجابا بعبقريته يوجه الحدث مرة أخرى حسب المنطق السيكلوجي وهذا حين جعل البطل الحاقد على السيدة (م) يطعنها في شرفها ، ويسيء الى سمعتها انتقاما منها ، وهي الناجحة فيما فشل هو فيه .

فقد جعل نفسه يقتلها في نوبة من نوبات الغيرة الرعناء .

فقد كانت تلك السيدة العظيمة – في نظر المجتمع الأبله – عشيقة له ، اذ كانا عاشقين متيمين ، يهيم كل منهما بصاحبه هيام جنون . وكانا يلتقيان في الخفاء مغاليين في الحيطة والحذر ، فلم يكتشف سرهما أحد .. ويوما وقع في وهمه أنها قد وهبت قلبها لسواه ، فثارت ثائرته ، وطعنها بنصل مسنون .

فقد جعل البطل اذن من هذه السيدة العظيمة عاهرا لينتقص – لاشعوريا – من نجاحها ومن عظمتها ، فكأنه يرميها من غير وعي بالحقارة وأنها لا تستحق كل ما استحقته من شهرة ونجاح في هذا المجتمع الغبي الذى رفضه .

ولم تقف عبقرية الكاتب عند هذا الحد ، بل جعل هذا البطل الذى على الرغم من شدة حنينه للمرأة ، ورغبته في الزواج ، لم يجد من تقبله زوجا لها ، فقضى سني حياته الثلاثين في تشوق اليها وولع . ومعنى هذا أنه يحس بالحاجة الى أن يكون محبوبا من امرأة .

ونرى بوضوح عبقرية تيمور وهو يورد هذا الاعتراف الموهوم على لسان بطله . فهذه السيدة ترمز في لاشعور البطل الى شيئين : ترمز اولا الى الحاجات الاجتماعية التى فشل في اشباعها .

وترمز ثانيا الى الحاجة ليكون محبوبا من امرأة تمنحه حبا .

وهكذا أخيرا ندرك بوضوح كيف جعلنا الاستاذ محمود تيمور نعيش هذه التجربة الفريدة بكل خلجة من خلجاتنا دون أن نشمئز من شخصية البطل ، بل جعلنا نرثي له ونعطف عليه . وهذا دليل العبقرية الفذة ، والأصالة الفنية الفريدة التى تربعه – بحق – على عرش القصة القصيرة .

محمد عبد الفتاح احمد



مع فراشات ونوار

الشاعر «العوضى الوكيل» معروف بغزارة الانتاج، وبانه لم يتحول تحولا كاملا عن هذا الفن الذى يهرن الكثيرون الآن من ناره العالقة فى الأقلام والنفوس .. فهو الى جانب دواوينه العديدة يوجد له كتابان للشعر فيهما الجانب الكبير ، ومعنى هذا انه قد أصبح من النضج بحيث لا يستطيع الناقد أن يخطىء ماوصل اليه من الشفافية واحكام المعمار ، وتوهج الصورة ، وكونية الكلمة ، فكل شاعر مطالب بهذا بالاضافة الى وجهة النظر العصرية ، التى يمكن ان يقال فيها ان الشاعر يعيش بيننا ، صحيح أن الشاعر لا يطلب منه الا أن يغرس أهدابه فى المستقبل متجاوزا الحاضر ، ولكنه اذا استطاع أن يلوى فى وجهه بحيث يجعله دائما فى حالة تلق للماضى .. كان من الواجب أن نقول له : أعد لنا وجهك مرة ثانية .

وعلى كل فنحن نرى الشاعر العوضى الوكيل فى « فراشات ونوار » قد تآمر على نفسه فى هذا الديوان اذا اعتبرناه خطوة تالية لما أصدر من قبل من دواوين . أما اذا كان مختارات من شعره فهو لا يخلو أيضا من اللوم ، لأن هذا الاختيار لم يقم على أساس أنه أجود شعره ، أو أنه يمثل تيارا معينا فى هذا الشعر يحب الشاعر أن يقدمه للقارىء .

والسبب فى هذا أن الشاعر قد «سطا» على شعره القديم ، وبخاصة ديوان « أغانى الربيع » الذى صدر فى عام ١٩٣٩ ، وكان أن قدم لنا عددا وفيرا من قصائده مثل : الغد فى حلوان ، صدى قبلة ، لون العيش ، نداء الباعة ، فى موكب الربيع ، وحى لقاء وبالاضافة الى هذا تجده يلم بكتاب « رسوم وشخصيات » ولا يكتفى بنقل بعض الشعر ، وانما يضيف الى عملية النقل هذه المقدمة التى صدر بها الكتاب .

فالشاعر قد تآمر ضد نفسه ، لأنه اذا كان قد أبعد هذه المختارات التى تشتت القارىء ، والتى لا تساعد على تكوين خط واضح لشعره .. اذا كان قد أبعدها ، فانه بلا شك كان سيظهر الاضافة المثرية التى تصدر فى كل ديوان جديد ، وكان — فى

الوقت نفسه ـ سيعمق خطين كبيرين لا يخطئهما المتعمق لشعر الشاعر والمتتبع له من زمن بعيد ٠

فالخط الأول هو خط الطبيعة ، فهو يذكرنا دائما بقول س٠ت٠كولردج الذي يؤكد أن في داخلنا تحيا الطبيعة ، وتستطيع أن ترى هذا في قصائد الفراشة، عمر الورد ، الزهرة ، فاتنة الربيع ، الطبيعة في الصحراء ، ياشمس القمر المطل ٠٠ بل ان الخامة التي يعتمد عليها كل شعره يمكن أن ترجع الى الطبيعة في بساطة ، صحيح أن بعض ماقيل في الطبيعة يقوم على الوصف ، الا أن البعض الآخر يقوم على الحوار الدرامي الشفاف ، فاذا كانت قصائد الوصف عنده تؤكد أن الطبيعة ظلت كما هي منذ البدء لم تتغير ، فان قصائد الحوار الدرامي تؤكد أن الذي يتغير هو نظرة الشاعر نفسه ، وما أجدر الشاعر بان يتحول تماما الى هذه الخاصية التي تمت الى الشعر باكثر مما يمت اليها الوصف ، والتي يمكن أن نحس بها في عدة قصائد مثل قصيدة « عمر الوردة » :

قلت للوردة لما ابتسمت
حينما كللها قطر الندى
وسرى الصبح اليها بهجا
وجرى الطير عليا غردا
والضحى عن جانبيها ألق
والضحى انس وحب أبدا :
« انعمي بالصبح فالليل متى
جاء ألقى بك في جب الردى
ما تعيشين سوى يوم فان
يمض راح العمر أوضاع سدى »
قالت الوردة لي : «ياعجبا
انا لا احسب عمري عددا
وقصير هو لكني به
أعرف الحب فاسمو صعدا
وكفاني من حياتي لمحة
ألبستني ـ حين مرت ـ رغدا
لمحة الحب وناهيك بها
ما بها تمضي حياة بددا »

أما الخط الثاني الذي يمكن أن نراه بوضوح فهو خط الزمن عند الشاعر كما في قصائد: « آخر خمس دقائق ، لن أشيخ ، ابنو بالحب ، وجمجمة » والزمن عند الشاعر قوة تطحن الجسم ولكنها لاتطحن القلب ، وهو وقت يمكن الانسان من المتعة ثم يسلمه بعد ذلك للموت ، وهو قد يتحايل على هذا الزمن فيذكر أنه مهما مر عليه الزمن فانه لن يتعدى العام العشرين كما في قصيدة الزمن والحب ، وأن الزمن يجب أن يقاس بالمتع التي تؤخذ منه كما في قصيدة جمجمة التي تذكر بمناجاة هاملت لاحدى الجماجم ٠٠ ولعل هذا الاحساس الزمني الذي يلح على الشاعر هو الذي يجعله يقدم ترجمة لقصيدة الوداع الأخير لشاعر فليبيني وهي تدور حول الاحساس الحاد بالزمن ، ويترجم أغنية ايطالية معاصرة تؤكد امتلاك الامس ، وامتلاك الغد قبل أن يأتي ، كما يقدم ترجمة لاغنية فرنسية تنادي أكثر من مرة بتجميد الزمن في الليل وعدم السماح له بالمرور ، ولعل قصيدته « آخر خمس دقائق » هي التتويج لهذا الاحساس الزمني ، الذي يدور حول استعطاف الموت في منح خمس دقائق بالاضافة الى كمية الزمن المخصصة للعمر ٠

هذان هما الخطان البارزان في هذه المجموعة ، وهما خطان عميقان كان يمكن للشاعر ان ينميهما لولا هذا الكسل الذي جعله يضم زهورا قديمة الى زهور جديدة ٠

فاذا أضفنا لذلك أن الشاعر يحسن استخدام الصور البصرية ، ويبهر النفس بهذه الالتفاتات السريعة الثرية التي لا تنتهي برفع البصر عنها لحساسية القطع والانتقال كما في الاسلوب السينمائي مثل قوله في صدى قبلة :

ثغرك فيه قبلة
كأنها تهتف بي
كالطيف في رقص ، وفي
سرى ، وفي منسرب
هذا صداها في فمي
يذهب كل مذهب

صحيح أن الصورة تهتز بعض الأحيان في شعره ، حين يستخدم بعض الألفاظ المعجمية ، ولكن مما لاشك فيه أن الشاعر يمكنه بانصهار أكثر في التجربة أن يذود عنه هذه الألفاظ الدخيلة على العملية الشعرية وعلى اللغة اللماحة الذكية للعصر ، كقوله في حبيبته ان بها « عبسة ونفار » أو قوله في مطلع قصيدة الاسكندرية ـ الا اذا كان يهتدي بالمطالع المتنبية :

أرض المنى ومرادة الأرواح
يا ليت حسنك لائم أجراحي

ثم لا بد من القول هنا ان الشاعر يغمس قلمه فى مداد العقاد ، لا لأن الشاعر كتب عنه أكثر من قصيدة ولكن لانى ألمح أحيانا التأثر بطريقة بناء العقاد للقصيدة ، وبطريقة الهجوم السريع على الفكرة دون أن ترطب بالمرور على القلب ، ولعل هذا هو الذى يجعل بعض القصائد لا تخرج عن لفتات ذهنية مثل قصائد منجم ، وأزاهر فى يدى ، لست منه وليس منى ، الزهرة ، بل ان هناك تشابها بين قصيدة نداء الباعة ص ٢٥ وقصيدة أخرى مماثلة للعقاد فى ديوان « عابر سبيل » الذى صدر عام ١٩٣٧ ، بل ان قصيدة « صدى النور » لاتخرج عن مضمون كلمة العقاد : « كلما أمعنت فى الحس والتفكير تبين لى أن النور هو سر الاسرار ، واننا سنكشف حقيقة الدنيا يوم نكشف حقيقة النور ، فالنور ينسخ كل شيء ، وكل شيء ينتهى الى النور • هذه لمسات سريعة عن الاضافة التى أضافها ديوان فراشات ونوار ، والذى يعتبر ملمحا لابد من التعرف عليه لقارىء الشعر ، وفى الوقت نفسه لابد أن نسر فى قلب الشاعر أن عليه ألا يلتفت الى الماضى فيقدم لنا أول ماتقع عليه عيناه الا اذا كان هذا يخدم وجهة نظر جديدة يريد أن يضع القارىء أمامها — وأحسب أن هذه مهمة الناقد لا الشاعر — وأن عليه أن ينسى بعض الألفاظ والجمل الهشة التى تعرف كيف تنفذ من أحد الثقوب الى معماره الشعرى ، مما يجعل القارىء عرضة للتشتت أو الابتعاد عن المجرى العميق للقصيدة •• ثم لعله — أخيرا — يعطينا الحق فى أن نطلب منه الا يشعع طاقته فى اللمحات الضوئية السريعة ، وفى الصور الخارجية للانسان ، فهناك التجارب الانسانية التى يمكن أن تستوعب طاقته — كما فعل فى ديوان شفق — فنحن لا نريد منه هشاشة الفراشة ، ووداعة النوار ، ولكنا نريد منه عمق الإنسان وصراعه واصراره على الحياة مهما كانت الظروف التى تحيط به ، وما أحسب الشاعر الا سائرا فى هذا الطريق •

حول جماعة ابولو وأبى شادى

اذا كانت كلمتى فى العدد الماضى قد أثارت الزميل عبد العزيز الدسوقى ، فانه يسعدنى أن أنشر فى هذا الباب هذه الكلمة التى لم يشأ أن تقف عند توضيح ماقلت ، وانما عند أشياء كثيرة فى مقدمتها دوره فى الدراسة الرائدة عن جماعة أبولو وأثرها فى الشعر الحديث ، وعن القيمة الحقيقية لهذه الجماعة وهل هى تيار أم مدرسة ؟ ولعلنا بهذا نكون قد حاولنا أن نجذب دائرة الرسائل الجامعية من الشاهدين المحدودين الى دائرة أكبر ، مما يؤدى الى متابعتها والاهتمام بها •• واذا كانت هناك كلمة اقولها للاستاذ عبد العزيز دسوقى فهى أنى لست أنا الذى وضحت التناقض فى القول بتجديد مطران وعدم تجديده وانما اللجنة هى التى قالت هذا ، وقد نقلت عنها هذه الكلمة بكل أمانة ، ومع هذا فانى أفتح الذراعين لعتاب الصديق لأنه كان على بعد أن سمعت هذا الكلام من اللجنة أن أرجع الى كتابه ، بل كان على ألا تفوتنى الى الآن قراءته ، فله منى المعذرة ، وللقراء منه هذه الكلمة •

كتب الصديق الاستاذ عبده بدوى فى العدد (١٠١) من مجلة الرسالة الفرا، تعليقا على مناقشة رسالة الصديق الشاعر كمال نشات للدكتوراه « احمد زكى ابو شادى حياته وشعره » وقد استوقفتنى فى التعليق العبارة التالية « اذا كان عبد العزيز الدسوقى يذكر فى رسالته ان مطران لم يجدد لانه مسيحى ، فان كمال نشات يقول ان مطران لم يجدد الا لانه مسيحى » •

وكنت قد قرات قبل ذلك بيومين فى مجلة الثقافة تلخيصا لرسالة الصديق كمال نشات فى « جولة الثقافة » التى يقدمها الاستاذ فؤاد نور وقد جاء فى نهاية هذا التلخيص تركيز للنتائج الجديدة التى انتهت اليها رسالة الدكتور كمال نشات فى سبع نقاط •• تقول النقطة الخامسة منها « صححت كثيرا من المفاهيم الخاطئة الشائعة وسط الأدباء ، كما هو موجود فى النقاش مع عبد العزيز الدسوقى فى كتابه « جماعة ابولو واثرها فى الشعر الحديث » واتهام العقاد لأبى شادى بانه صنيعة السراى » •

وقد كان حريا بى ان تنتعش روحى واسعد ••• لان افكارى وارائى اخذت تشق طريقها الى اروقة الجامعات والمعاهد العليا ، وتناقش فى رسائل للدكتوراه ، ولا يهم بعد ذلك الاختلاف فى الآراء فسيبقى مجال الدراسة الادبية والانسانية متسعا لاختلاف النظرات والافكار •

ولكننى احسست بحزن وضيق •• عندما علمت من الأصدقاء ان كمال نشات استخدم فى رسالته للدكتوراه اسلوب الاثارة والتجريح على نحو ما يكتب فى الصحف والمجلات •• واذا صح ذلك فهذا شيء مؤسف أن يتحول المنبر الجامعى الى ميدان للاثارة والسطحية والاعتداء على اصحاب الدراسات •• وانا بطبيعة الحال لم اقرا رسالة الدكتور كمال نشات حتى الآن وساحاول ان افعل •• ولهذا سأترك هذه القضية حتى اقف بنفسى على ما كتب الصديق العزيز كمال نشات واقرا ما جاء فى رسالته من آراء خاصة بى وبكتابى •

ولكننى هنا ساذكر بعض الحقائق لقراء الرسالة والثقافة الذين قد

يفهمون مما نشر حول كتابي انه ملىء بالمفهومات الخاطئة ، او انني قلت ان مطران لم يجدد لانه مسيحي ...

وسأركز بقدر الامكان ما اريد ان اقوله في نقاط سريعة :

اولا : كتابي لم يكن كما توحي مجلة الثقافة مجرد كتاب نشرته التماسا للشهرة ، بل كان رسالة ماجستير تقدمت بها لمعهد الدراسات العربية وقد سجلت هذه الرسالة في خريف عام ١٩٥٤ واشرف عليها المرحوم الدكتور محمد مندور ثم نوقشت الرسالة في مايو سنة ١٩٥٩ ... واوصت لجنة الامتحان بطبع الرسالة تقديرا لها .. وقد طبعت بالفعل في عام ١٩٦٠ .. واحتفى بها المفكرون . وانا لا اذكر هذا تفاخرا ولكن لاقرر ان امر الرسالة كان مشهورا ولم يكن خافيا على كمال نشأت فاين كان هو ولم لم يصحح لي الأخطاء التي شاعت فيها بعد في اوساط الأدباء .

ثانيا : رسالتي كانت دراسة لتيار شعرى هو تيار ابولو . ولم يكن دراسة لشخص ... وقد تناولت في الفصل السادس بالدراسة والتحليل « ابو شادي – حياته وشعره ودواوينه ومسرحياته » وكل الاحكام التي نشرت في الثقافة على انها من ابتكار كمال نشأت بمثابة تلخيص لهذا الفصل من كتابي وانني اطلب في هذا المجال شهادة الدكتور عبد القادر القط الذى اشرف على رسالة كمال نشأت والذى حدثني اكثر من مرة عن كتابي واهميته وانه يدرس منه بعض اجزاء في كلية الآداب بجامعة عين شمس ، واذكر ان الدكتور عبد القادر في البرنامج الثاني اخذ على انني احتفيت بابي شادي واطلت في دراسة آثاره مع انه يقل عن كل زملائه في جماعة ابولو .

ثالثا : اتهام العقاد لابي شادي بانه منيعة السرابي انا الذى ناقشت فيه العقاد وسجلت ذلك في رسالتي ولست ادرى كيف صحح كمال نشأت هذا الامر وهو لا يملك ادوات البحث فيه بعد ان مات العقاد يرحمه الله . اما اخطائي انا فلن اعرض لها ما دمت لم اقرا نص كلام الصديق العزيز .

رابعا : في رأيي – وهذا نقد يوجه الى قسم اللغة العربية بجامعة عين شمس – ان ابا شادي ما كان يصح ان يكون رسالة للدكتوراة في العربية ، وخصوصا بعد ان درس في مصر ... فاذا كان عمدا حتما .. فكنت اريد ان يدرس ابو شادي المهجرى ، فهو الذى لا يزال في حاجة الى تعمق .. وان كان الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي قد اصدر منذ وقت مبكر كتابا عن ابي شادي رائد التجديد في مجلدين لا اعتقد ان كمال نشأت مهما وصل من حماس لابي شادي سيصل الى حماس الاستاذ خفاجي واحاطته بابي شادي فاين الجديد الأصيل الذى اضافه كمال نشأت برسالته للدكتوراه الى حقل الدراسات الادبية .

خامسا : انا لم اقل ان خليل مطران لم يجدد .. بل ان هذا لم يطف بذهني ابدا ... بل تحدثت عن تيارات التجديد التي سبقت جماعة ابولو وفصلت منها تيارين :

التيار الأول : تيار ذاتي ويمثله « العقاد والمازني وشكرى » (جماعة التجديد) وقد كنت سميتهم خطأ جماعة الديوان .

التيار الثاني : التيار الموضوعي (ص ٦٣ من كتابي) ويمثله خليل مطران ، وقد درست هذا الشاعر بدقة ووقفت عند تجديداته وظروف حياته وعشت مع شعره وانتهيت الى انه لم يقد تيار التجديد كما يقرر كل النقاد والدارسين ، وانما الذى قاد هذا التيار هي « جماعة الديوان » او جماعة التجديد كما اسميها الآن في دراساتي الحالية ، وقلت ان مطران كان يعيش في مصر غريبا يحس هذه الغربة في اعماقه ، ولهذا كان يخفي مشاعره وكان رحمه الله شديد الحساسية ، كثير المعاودة لنفسه ولشعره وكانت التيارات السياسية والدينية تصطخب في الحياة المصرية اصطخابا عنيفا ، وكانت اللغة العربية والحضارة العربية شعارا مقدسا يمتزج بالشاعر الدينية حتى كان المرحوم مصطفى صادق الرافعي يدخل معاركه الادبية « تحت راية القرآن » فهل كان من الممكن ان يقود خليل مطران المسيحي المتزن السمح الوادع تيار التجديد في هذا الجو العاصف ... ومع ذلك – كما اكدت في رسالتي – لم انكر تجديد مطران .

سادسا : بدراستي لشعر مطران تبين لي ان معظمه شعر مناسبات ، وقد وقع في المبالغات التي كان يقع فيها القدماء وفي ديوانه جزء كبير خصصه للاغراض الدارجة والمناسبات العابرة التافهة من امثال الكتابة تحت رسم ص ٥٠ من ديوانه « وفي اللعب بالشموس » « وفي التهنئة بمولود » وفي « باقة مائدة » ثم ان شعر خليل مطران كان شعرا موضوعيا مركبا لا يتسلل الى النفوس في سهولة ويسر ، بل كان دائما في حاجة الى تامل دقيق حتى تلوكه القلوب وتقف العقول على خصائصه واسرار جماله ، لهذه الأسباب والملابسات التي بسطت الحديث عنها في رسالتي قلت ان مطران لم يقد حركة التجديد في شعرنا المعاصر وانما قادها العقاد والمازني وشكرى .

وهبني اخطأت في اجتهادي هذا وظهر ان كمال نشأت مصيب فلا يكون قد اتى في ذلك بجديد لكل الدارسين قالوا ان مطران هو الذى قاد حركة التجديد ... ولي في هذا كلام طويل لامجال لتفصيله هنا .

سابعا : فيما يخص دراستي عن جماعة ابولو انتهيت الى انها تيار شعرى في ادبنا المعاصر تغلب عليه النزعة الوجدانية والتعبير عن الذات ، وان ضم بين امواجه المتدفقة معالم من النزعة الرمزية والنزعة الاجتماعية والانسانية ، ولهذا قسمت شعر هذا التيار الى نزعات خمس هي : النزعة العاطفية والنزعة التاملية ، والنزعة الوصفية – والنزعة الاجتماعية – والنزعةالانسانية ، واستعرضت كثيرا من النماذج التي تدعم هذه النزعات واجملت التجديد الذى ادخلته الجماعة في شعرنا المعاصر في ثلاثةمظاهر :

(ا) التجديد في البناء الفني : واعني به التجديد في الشكل الخارجي من حيث التفنن البنائي والبحور والقوافي والتنويع في الاوزان ودرست تجديدهم في هذا المجال وذكرت نماذج من الشعر الحر وتفننهم في استخدام التفعيلات والشعر المرسل والنثر الشعرى والشعر القصصي والشعر المسرحي .

(ب) التجديد في البناء الداخلي : واقصد به تنسيق الافكار

والصور الشعرية والعواطف والأخيلة ومراعاة النسب بينها وبين الشكل الخارجي بحيث يخرج العمل الفنى متناسق الظل والضمون والوحدة الفنية .

(ج) الرسالة الشعرية : واعنى بذلك افكارهم الاجتماعيـــة والانسانية .

وقررت ان هذه الجماعة لا تمثل مذهبا ادبيا او مدرسة فنيـة موحدة على نحو ما نرى في المذاهب الأدبية عند الغـربيين . لأنها كانت تضم شعراء مختلفى الشعر والثقافة والنظرة والاتجاه ، فقد جمعت بين شوقي ومطران ومحرم وابى شادى وناجي والشابى وعلى محمود طه والصيرفي والسحرتي وعثمان حلمى والهمشرى وصالح جودت ومحمود ابو الوفا واعتقد ان هؤلاء جميعا لايمثلون مدرسة موحدة الهدف والاتجاه .

ولست ادرى كيف يقول كمال نشات ان هؤلاء يمثلون مدرسة؟

ثالثا : قلت عن ابى شادى ـ بعد دراسة عميقة لشــعره ومعايشة طويلة له ـ ان ظروف ابى شادى النفسية وما لاحقه من ازمات متتالية قد اصابته بنوع من الاضطراب النفسى والقلق حتى اصيبت طاقته الشعرية بالتخلخل واتساع الرقعة ، ولهــذا لم من التاثر بشعره مباشرة فى شعراء ابولو ، بل قد تاثر هو بهم وبخاصة ناجى والشـــابى وعلى محمود طه ... ومع ذلك فقد اعترفت له بانه رائد من رواد هذا التيار فلقد اثر فى تلاميــذه بنشاطه ومجهوده الفكرى ونقـده وتفتحاته المتوالية فى سبيل الادب والفن والعلم . وكان له دور خطير فى التوجيـــه والنقد ساعدته عليه ثقافته الغربية الواسعة والمامه بكثير من المذاهب والتيارات الادبية . ولكننى لا ازال اعتقد ان ابا شادى لم يكن فى يوم من الايام الشاعر الكبير الذى تجمع حــول شـــعره مدرسة موحدة الاتجاه .

واخيرا لى عتاب على الصديق عبده بدوى ، وهو انه نقل عن كمال نشات اقواله ونسبها الى ظلما دون ان اقولها واذا كنت اعذره لعدم اطلاعه على كتابى فقد كان مسافرا عند صدوره،فانى سارسل له الكتاب ليقف بنفسه على القضايا التى اثارها كمال نشات ويحكم بينى وبينه وانا راض بحكمه ..

بعد أربعين يوما

فى ذكرى مرور أربعين يوما على وفاة الدكتــور مندور ظهر أن الحزن عليه مازال يخلع القلب ، ويدفع بالتساؤل والألم الى عيون كل المتحدثين، فأكثر الذين تكلموا كان يحس من كلامهم أنهم مازالوا يرفضون ذهابه الى القبر ، فما زال معهم فى المدينة يســير ويناقش الى الحد الذى كان يخيل للانسان أن الدكتور مندور لابد سيدخل القاعة قبل أن ينصرفوا على حزن ، ولابد أن يبدد لهم ـ كعادته ـ هذا العبوس الذى خيم على النفوس والمكان !

فمع انه كانت هناك بعض الدراسات الجادة عن دوره فى حياتنا الأدبية ، الا أن الصوت كان سرعان ماينشق ، ثم تنساب الدموع بين هذه الشقوق ، واذا الناس ينصرفون عن الكلمة الى الدمعة ، وعن الفكرة الى قطرات الحزن التى كان يستهان بهـا فى أول الأمر ، ولكنها كونت فى النهاية بحيرة جزع كبيرة ، اضطر المخوضون فيها الى أن يتساندوا ، والى الاينتظر بعضهم فى وجه الآخر .. وبخاصة حين وقف الدكتور مصطفى مندور يذكر أن شقيقه لم يصبح ملك أسرته أو قريته ولكنه أصبح ملكا للناس الذين قرأوا له واســـتمعوا اليـه ، والذين ســيقرأون له وسيستمعون بطريقة أو بأخرى اليه .

وفى الوقت الذى يميل فيه راس صديق ليذكر أن رجال الفكر قد كثر اجتماعهم على حزن أكثر من مرة فى الفترة الأخيرة ، يحس الانسان ـ ورأســه مائلة ـ أن الدكتور محمد مندور كان من أعز وأحب الذين رحلوا باسم الفكر ، وأن الحزن عليه سيستمر بعد أربعين يوما !

عبده بدوى



رسالة العلم



الحد الأعلى لإنتاج المحاصيل

وكيف السبيل إليه لمواجهة الزيادة المطردة في السكان

الدكتور عبد الحليم منتصر

لا شك أن الارتفاع بانتاج المحاصيل الى حده الأعلى ، انما هو هدف يسعى الى تحقيقه كل عامل فى هذا الحقل ، وأمل يعمل العلماء بصفة خاصة على الوصول اليه ، لما فى ذلك من محاولة اعداد ما يكفى من الطعام لسكان الارض الذين يتزايد عددهم كل يوم .

وقد درس العلماء احتياجات نباتات المحاصيل من العناصر المعدنية ، وعرفوا كيف يضيفون الى التربة ما يحتاج اليه نبات معين من عناصر خاصة ليعطى أوفر غلة ، فهذا النبات يحتاج الى مزيد من البوتاسيوم ، وذاك يحتاج الى مزيد من الكلسيوم او الحديد او الفسفور او الزنك .. وهكذا . وعرف أن نقص المحصول أحيانا ، لا يكون له من سبب الا النقص الواضح فى هذا العنصر أو ذاك . وأن بعض الامراض التى تصيب بعض المحاصيل انما يكون سببها فقر التربة في عنصر معين يحتاج الى النبات ، ويكون العلاج الناجع باضافته الى التربة ، وينسب المرض الى العنصر ، فيقال مرض نقص الزنك ، أو مرض نقص الفسفور وهكذا . وكذلك عرفت المخصبات الزراعة والأسمدة الكيميائية ، وعرفت أسماء تجارية لعشرات من الاسمدة والمخصبات ، ونشأت صناعات ضخمة لتحضيرها واعدادها ، لتكون في متناول الزراع يضيفونها الى التربة ليفيد منها النبات ويغتذى بها ، فيزيد انتاجه .

وكذلك درست الاحتياجات المائية لنباتات المحاصيل المختلفة ، وعرفت المقننات المائية التى تلزم للتربة التى تزرع بمحاصيل معينة ، وهى المقادير التى ينبغى الا تتجاوز ، والا يسرف فيها ، حتى لا تضر بالمحصول ، وان مقاديرها لتتوقف على نوع التربة وصفاتها الطبيعية والكيميائية ، كما تتوقف على نوع المحصول ، وتتبع ذلك العناية بطرق الرى وهل يكون غمرا او رشا ، وطرق الصرف ، وهل يكون مغطى او مكشوفا . اما الآفات التى تصيب المحاصيل ، فقد بلغ العلم شأوا بعيدا فى مقاومتها وعلاجها ، صحيح أن بعضها مازال عصيا على العلاج ، ولكن الكثير منها ، قد وفق العلم الى التغلب عليه ، فهناك عشرات من الامراض والأوبئة ، من أمراض فطرية الى حشرات قشرية ، الى ألوان من العنكبوت الاحمر وصنوف من المن ، وما لا يحصى من أعفان وتبقعات ، وبياض وصدأ وفيروس وذبول ، وغيره ، كانت تسبب خسائر فادحة فى المحاصيل ، فاذا العلم يطب لها جميعا ، ويحضر لها من المبيدات الفطرية ، والمبيدات الحشرية ، والمبيدات الفيروسية ، وما اليها ، ما يقضى عليها ، أو على الاقل يحصر اضرارها في أضيق نطاق ، أو يقفه عند حد فلا يستشرى ويأتى على المحصول كله .

وعرف العلم كيف يختار لكل نبات ما يلائمه من مناخ ، ومن تربة ، فلا يزرع المحصول الا حيث تتوافر له أسباب الجودة والقوة ، اذ هناك من العوامل المناخية والتربية ما لابد من مراعاتها ، فهناك

حرارة مرتفعة وجو دافيء ، وهناك حرارة منخفضة ، وجو الى البرودة أميل، وهذا تلائمه الاجواء الرطيبة، وذاك تلائمه الأجواء الجافة ، وهذه التربة الصفراء تناسبها تلك المحاصيل ، وهذه التربة السوداء تجود فيها محاصيل أخرى ٠

واستطاع العلم أن يستنبت من المحاصيل ، بالانتخاب والتهجين ، سلالات تكون أكثر مقاومة للأمراض ، وأشد مناعة لها ، وتكون بالتالي اوفر غلة ، وقد تكون في الوقت نفسه أحسن شكلا وابهج منظرا ٠

ولنقف قليلا عند هذه الحالة ، التي تكون فيها درجة الحرارة الملائمة للنمو هي السائدة ، أما الاحتياجات المائية والمعدنية والتحكم في الأمراض والاوبئة ، فانها على مستويات مختلفة وعرضة لتغيرات وتأثيرات متباينة ٠

ومن المحقق والمتفق عليه بين العلماء ، أن العامل الاساسي في انتاج النبات ، انما يكمن في عملية البناء الضوئي ، التي يتميز بها النبات الاخضر على سائر الكائنات ، والتي يستطيع بوساطتها أن يستغل الطاقة الضوئية من الشمس في انتاج مواد عضوية معقدة يصنعها هو من الماء وثاني اكسيد الكربون في وجود المادة الخضراء ، والمادة الحية وفي درجة الحرارة الملائمة ٠ انه بذلك يحول الطاقة المستمدة من الشمس ، الى طاقة يختزنها النبات فيما ينتجه من أنسجة وألياف وثمار وخضراوات ، يغتذى بها الانسان ، وسائر أنواع الحيوان بطريق مباشر أو غير مباشر ٠

وقد استطاع العلم ان يكشف تفاصيل هذه العملية الرائعة الدقيقة ، وأن يعرف خطواتها على التحقيق ، ولكنه لم يستطع حتى الآن أن يقلدها ، لأن سرها الأعظم ، عند الخالق سبحانه ، أودعه ما خلق من مادة حية ، تقوم بهذه العملية الكيميائية الضخمة في سهولة وفي يسر ، واستطاع العلم أن يقيس وأن يقدر ما يستغله النبات من طاقة الشمس، وما يختزنه في أنسجته من طاقة ، وأن يعرف أحسن الظروف التي يستطيع بها النبات أن يعطي أوفر غلة وأعظم انتاج ٠

فاذا زرعنا مساحة معينة من الارض ببذور نبات ما ، ثم جمعنا المحصول في نهاية الموسم وقدرنا الوزن الجاف للمواد النباتية الناتجة ، من سوق وأوراق وجذور وزهور وثمار ٠ على أن تقدر في الوقت نفسه ، وطوال فصل النمو مقدار ما سقط من أشعة ضوئية على هذه المساحة من الارض، وذلك بوساطة جهاز معين يقيس فيض الضوء المرئي (٤٠٠٠ ــ ٧٠٠٠ انجستروم) وهو مايمتصه النبات في عملية البناء الضوئي ، ونستطيع بذلك ان نقدر نسبة عدد السعرات الحرارية التي امتصها النبات من ضوء الشمس الى تلك التي احتفظ بها النبات في أنسجته ، وذلك بحرق الاخيرة ، وقد أجريت تجارب كثيرة من هذا النوع في بلاد مختلفة ، وعلى نباتات مختلفة ، مما نستطيع معه أن نطمئن الى النتائج التي حصل عليها العلماء ممن يشتغلون بهذه البحوث ، ويهمنا هنا أن نعرض لبعض الحقائق المتعلقة بهذا الموضوع ، والتي تواتر الخبر اليقين بشأنها ، حتى غدت من المسلمات التي لا غنى للمثقف الرفيع عن معرفتها والتيقن منها ٠

ففي كثير من التجارب ، كانت قدرة نباتات المحاصيل في عملية البناء الضوئي تتراوح بين ٢ و ٥ر٢٪ ، أي أن الطاقة التي اختزنها النبات بالنسبة للطاقة التي بذلتها الشمس لا تتعدى ٢ ــ ٥ر٢٪ وقد عرفت هذه النسبة العالية في محصول الارز في اليابان ، ومحصول القمح في الدانمارك ٠

كما أن معظم نباتات المحاصيل ، قدرتها في عملية البناء الضوئي ، تقل عن ٥ر٢٪ أي أنها لم تبلغ الحد الاعلى وهو ٥ر٢٪ لأسباب مختلفة كنقص الغذاء المعدني، أو خلل في المقننات المائية، أو بسبب الامراض التي تصيب الاوراق الخضر ، فلا تجعلها تستغل أقصى امكانياتها في عملية البناء الضوئي ، أو لارتفاع أو انخفاض في درجة الحرارة الى حد يعوق سير العملية ، ولا يصل بها الى حدها الأعلى ٠

وهناك حالات قليلة ، سجلها بعض العلماء ، وصلت فيها النسبة الى أكثر من ٥ر٢٪ ، وفي بعض حالات خاصة ، بلغت النسبة نحو ٥٪ في أوقات معينة من موسم النمو بالنسبة لبعض المحاصيل في جهات بعينها ٠

والآن ماذا عسى أن تكون هذه الاسس العلمية الطبيعية التي نستطيع عن طريقها أن نصل الى الحد الأعلى لانتاجية المحاصيل ٠ ان هذه الاسس لتبدو

سهلة فيما يعرضه العلماء من حقائق بشأنها ، فان العوامل الرئيسية التى تلعب دورها بمهـارة فى التقـاط ضوء الشمس ، واستغلال هذه الطاقة ، وخزنها فى النبات أولها ما يسميه العلماء « القدرة الكوانتومية» لعملية البناء الضوئى ، فان تفاعل عملية البناء الضوئى المعروف يجرى على النسق الآتى :

ثانى اكسيد الكربون + ماء + طاقة ضوئية ـــــ

مادة كربوايدراتية + اكسجين (ن كـــوانتيم) (مزيد من نبات)

ويمثل الحرف (ن) عدد العشرات من وحدات الطاقة الضوئية التى يمتصها النبـات من ضوء الشمـس ، وتستغل فى هذا التفـاعل • وقد قدر أن عشرا من هذه الوحدات تستغل فى تحويل جزىء واحد من ثانى اكسيد الكربون ، وبذلك عرفت النسبة بين السعرات المختزنة فى انسجة النبات والسعرات المستغلة من ضوء الشمس واذا بها (١ : ٥) أى ان ما يدخره النبات انما هو فى أحسن الحالات وبناء على التفاعل المثالى يساوى عشرين فى المائة فقط ومع ذلك فانها نسبة اعلى بكثير من الواقع المشاهد الذى لم يجاوز (٢ ـ ٥ر٢) بالمائة كما سبق بنا الحديث • فهل يستطيع العلم أن يرفع النسبة الى الحد المثالى وهو عشرين بالمائة ؟ انه بذلك يزيد الانتاج من ثمانى مرات الى عشر مرات ، وهذا يحقق فائضا كبيرا فى انتاج الحبوب والخضراوات والفواكه ، ويسد حاجة السكان المتزايدة الى الطعام •

أما العامل الثانى الذى يؤثر على القدرة الانتاجية لعملية التمثيل الضوئى التى يخزنها النبات ، فهو شدة الاضاءة نفسها ، اذ انها تتغير فى ساعات النهار المختلفة بطبيعة الحال ، وبالتالى تتأثر بسرعة امتصاص الضوء ومعدل عملية البنـــاء الضوئى • وتستطيع التجريب للحصول على أقصى اضاءة تصل بنا الى الحد الأعلى من انتاج عملية البناء الضوئى ، وانها عند حد معين من شدة الاضـــاءة لتصل الى درجة التشبع بالضوء ، ويتراوح هذا الحد من شدة الاضاءة بين عشر وخمس ضـــوء الشمس الكامل • وان كمية الضوء الذى تمتصه ورقة النبات لتتغير تبعا لشدة الاضاءة ، على ان هناك قدرا معينا من الضوء الساقط تمتصه الاوراق بصرف النظر عن شدته ، ثم يزداد هذا القدر تبعـا لزيادة الشدة • وتمتص الاوراق المحبة للشمس نحو ٨٠٪ من الضوء على حين تمتص اوراق الظل بين ٦٠ و ٧٠٪ منه •

وعلى ذلك تمتص الورقة ٨٠٪ من الضوء الساقط عليهـــا ، وتستغل منه ٢٠٪ بقدرة ٢٠٪ ، فتكون النتيجة النهائية خمسة فى المائة فقط •

ومن المحقق أن الحد الأعلى لانتاج المحاصيل كما تنظمه العـــوامل التى تتحكم فى قدرة عملية البناء الضوئى ، كما عرضناها ، قد أمكن الوصول اليه فى بعض المنـاطق التى تحقق فيهـــا أعلى مستوى من الوجهة الزراعية ، كما فى بعض جهات اليابان وغرب أوروبا وبعض جهات الولايات المتحدة الامريكية ، ومع ذلك فانه عند هذا الحد استطاع النبـــات أن يستغل بين ٢ و ٥٪ فقط من طاقة الاشعة الساقطة من الشمس ، وان القـــدر الحقيقى لهذه الاشـــعة ليتوقف على شدة الاضاءة • ولعـــل هذا اللون من البحث يهدينا الى الوســـيلة التى تســـاعدنا على الوصول بالانتاج الى حده الأعلى فى مناطق كثيرة ، ولعلنا نرفع من قيمة هذا الحد بالتحكم فى شـــدة الاضاءة ودرجة تركيز ثانى اكسيد الكربون ،ولعلنا كذلك ننتج سلالات من النباتات تكون لأوراقها قابلية امتصاص نسبة أكبر من الضوء وكمية أكبر من ثانى اكسيد الكربون أو تكون بلاستيداتها الخضر ذات خصائص أقدر على عملية البناء الضوئى التى تتوقف على نسبة مراكز الاختزال فيها الى جزيئات اليخضور الذى يدخل فى تكوينها •

وبعد : فهذا لون من البحث العلمى ، قد لا يبدو مألوفا لدى البعض ، ولكنه كما نرى يستحق أن تبذل فيه الجهود ، عسانا نستطيع عن طريقه أن نزيد من انتاجية المحاصيل اضعافا مضاعفة ، والذى لا شك فيه أن النجـــاح فى هذا المجال ، سيكون بالاضـــافة الى ما يبذل من جهد من ناحية انتخاب السلالات ، وعمليـــات التهجين ، وعلاج الآفات ، واختيار الاسمدة ، ومقاومة الامراض ـ كل ذلك من شأنه أن يصل بنا الى الحد الأعلى لانتاج المحاصيل ، وهذا يزيد فى أمل الانسان أن يعيش هـــانئا على ســـطح الارض التى يرجى أن تنتج من الغـــلات والمحاصيل ما يكفى قطانها •

د • عبد الحليم منتصر

الكتب نقد وتعريف

بقلم : محسن بن عبد الحي

القومية الافريقية

تأليف : اندابانجي سيتهول
ترجمة : عبدالواحد الإمبابي

يستطيع المتتبع لحركة النضال العالمي ضد الاستعمار أن يرى أمورا جديدة وهامة .

فقد استطاعت الشعوب المناضلة أن تجمع طاقاتها وامكانياتها في صورة مؤتمرات أو منظمات اقليمية أو قارية او على مستوى اكبر قارتين في العالم – وهما آسيا وافريقيا – تلك المؤتمرات أو المنظمات التي تنبع اساسا من ايمان الشعوب باهمية التضامن النضالي ضد القوى الاستعمارية العالمية .

وقد استطاع هذا التضامن الذي بدأ في باندونج ثم تطور في منظمة الوحدة الافريقية ثم في المؤتمرات المتعددة لتضامن الشعوب الآسيوية الافريقية أن يجعل الاستعماريين يغيرون من تكتيكاتهم السياسية العدوانية ليواجهوا هذا الاجماع الذي يعتبرونه ضد مصالحهم . وعرف الاستعماريون في نفس الوقت أن "الدول الحديثة الاستقلال لم تعد تقبل من الاستقلال مظاهره الشكلية التي تتمثل في علم ومقعد في الامم المتحدة ، ولكن هذه الدول تحاول بتضامنها أن تخلق في مجتمعاتها نوعا من الاستقرار العام الذي يؤدي بها الى مرحلة التنمية الاقتصادية ومرحلة التغيير الاجتماعي في داخلها . وعرف الاستعماريون كذلك أن مواجهة مثل هذا التضامن بالوسائل التقليدية انما هو ضرب من ضروب العبث ومن ثم لجئوا الى تفتيت هذه الجبهات من الداخل – معتمدين في ذلك على أعوانهم الذين يقفون ضد رغبات شعوبهم . وطبيعي أننا لا نستطيع هنا أن ندرس كل الأوضاع والأساليب التي تلجأ اليها القوى الاستعمارية في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية .. ولكننا سنحاول ان نقول ما يسمح به المجال هنا متخذين من افريقيا مجالا لبعض الملاحظات السريعة .

فمنذ انعقاد مؤتمر القمة الافريقي الأول في اديس أبابا ، والثاني في القاهرة والجبهة الاستعمارية العالمية تحاول أن تخرب هذا اللقاء من الداخل متخذة من بعض العملاء امثال تشومبي وغيره وسائلها لبلوغ مآربه ثم من بعض الدول الافريقية الناطقة باللغة الفرنسية والتي تطلق على نفسها مجموعة الافرومالاجاش مثل «السنغال ، ونيجريا وملاجاش ، وتوجو ، وليبريا ، وتشاد . » .

ولقد احس الزعيم الافريقي جوموكينياتا بهذا الخطر ، فقال في افتتاح مؤتمر وزراء خارجية منظمة الوحدة الافريقية الذي عقد في نيروبي في مارس الماضي :

« اننا نجتمع اليوم وهناك كثير من المشاكل الهامة تهدد مصالحنا الافريقية ، هناك قوى تلعب في القارة الآن دورا ضد الوحدة الافريقية ، واذا نجحت هذه القوى فسوف تخرب استقلالنا الذي بذلنا من أجله أعز التضحيات وأغلاها »

. وفي الوقت الذي تعمل فيه هذه القوى التي حددناها سابقا بالتعاون مع قوى الاستعمار العالمي . في داخل افريقيا .. نجد من يحاول عامدا أن يدس أفكاره السامة الداعية الى تحذير أشقائنا الافريقيين من القومية العربية .. وكأن القومية العربية شيء خارج عن نطاق القومية الافريقية .

ونسي هؤلاء العملاء الاستعماريون أن ٧٢٪ من

مساحة الوطن العربي تقع في افريقيا ، ونسوا في نفس الوقت ذلك الدور المجيد الذي قام به روادنا العرب العظام عندما قاوموا الغزو الاستعماري العنصري لافريقيا حيث وقف السلطان سعيد في زنجبار ، والزبيري باشا في حوض النيل الأعلى ، والسلطان رابح في حوض تشاد وهو الذي هزم الفرنسيين ثلاث مرات متوالية ، وما زال الناس في اواسط افريقيا يتغنون ببطولته الخارقة كأسطورة قومية ضد الاستعمار ، وكذلك الامام المهدي وخليفته في السودان ، وماء العينين في موريتانيا وكذلك «حميد بن محمد بن جمعه المرجبي» أو تيبوتيب في حوض الكونغو كل هؤلاء الرواد حاربوا الاستعمار وثاروا عليه ٠

واذا كانت القومية العربية بمفهومها الحديث تقف ضد القوى الاستعمارية في افريقيا فان ذلك ليس جديدا على شعبها وانما هو وصل للحاضر بالماضي وتدعيم له ٠٠

والوطن العربي الموحد في مفهوم شعبه وقادته هو الاساس المتين والمحور الذي لا بد منه لتدعيم القومية الافريقية الشقيقة بلا عقد مسبقة وبلا آية أغراض أو أطماع عدوانية ٠٠ لان شعبنا يتعرض في نفس الوقت لكل أنواع الضغوط والمؤامرات التي يتعرض لها الشعب الافريقي في دوله وكياناته السياسية ٠٠ وعندما قاوم شعبنا التآمر الاستعماري ضد شعب الكونغو ــ كان يؤمن في نفس الوقت بضرورة استمرار الزعيم باتريس لومومبا الذي قتله الاستعماريون بلا رحمة ٠ وعندما اختفى لومومبا صاحب الوجه المحاط بهالة من نور الشهداء من مسرح السياسة الكونغولية تمزقت الكونغو ٠٠ ان شعبنا يؤمن في داخله وخارجه بدور الزعيم المناضل الذي تلتقي فيه آمال جماهيره وليس ذلك عبادة للاشخاص وانما اعترافا بالمرحلة التاريخية التي تجتازها الشعوب الحديثة الاستقلال ٠٠ ومن ثم فان شعبنا يعرف دائما أن كل محاولة لتحطيم صورة هؤلاء الزعماء المشرقة تحت أي ظرف من الظروف انما هو تدمير لقيم الشعوب ووضعها أمام أخطار الانقسامات الداخلية ٠٠

واذا كانت مرحلة النضال ضد الاستعمار تتميز دائما بأنواع المشقة المتعددة وخاصة في مراحل المطالبة بالاستقلال ــ فان المرحلة الجديدة التي يواجهنا بها المعسكر الاستعماري بطرقه الملتوية تتطلب من الشعوب ــ كل الشعوب أن تكون على درجة كبيرة من الوعي والموضوعية في معالجة قضاياها المصيرية ، ولنثق جميعا بان الاتجاهات الاستعمارية سواء عندما تأخذ صورة الايحاء السلبي لتضليل الضمائر أو صورة النشاط العنيف لتحطيم الطاقات العذراء ، او باقتراحها حلولا خاطئة لتمويه المشاكل الحقيقية ، لكي تحافظ بذلك على وضع بال لا يتفق مع اعتبارات الحياة القومية والدولية ، نقول ان كل هذه التكتيكات الملتوية سوف تندحر وتتبدد أمام تضامن الشعوب المناضلة من أجل الحرية والحياة ٠

وكتاب اليوم القومية الافريقية يعطينا صورة واضحة عن ملامح هذه القومية وأسسها الانسانية ويوضح لنا كيف بدأت وعلى أي أساس تتحرك ٠٠ وكيف كان الافريقي وما زال في بعض المناطق المستعمرة يعاني من ظلم وعنصرية الرجل الابيض ذلك الذي يقف الآن ناصحا وموجها لعملائه الذين يبدون كأنهم قد نسوا ماضيهم القريب ٠

يقول المؤلف :

يشعر الرجل الافريقي بالألم يفتت قلبه عندما يرى نفسه يقدم كالسلعة في سوق البضائع ٠ فتوزيع الاراضي في كثير من الدول الافريقية التي يسيطر عليها الاوربيون توزيع مزعج وغير عادل ٠ ففي جنوب افريقيا نجد ان ١٣٫٧٪ فقط من الاراضي يمتلكها الافريقيون الذين يمثلون حوالي ٦٤٪ من مجموع السكان ، وفي روديسيا الجنوبية يملك الافريقيون أقل من ثلث الاراضي هناك بالرغم من ان عددهم يزيد على مليوني نسمة ، بينما لا يتجاوز عدد البيض فيها ١٨٠٫٠٠٠ نسمة ، وبينما يمتلك الاوربيون اجود الاراضي نرى الافريقيين يتكدسون في الاراضي البور التي لا يمكنها أن تمدهم بالقوت الضروري ، ومن ثم يلجئون الى العمل في مزارع الاوربيين باجور بخسة وبطريقة اقرب الى السخرة منها الى العمل ٠ وقد ارتكب البلجيكيون فظائعهم المشهورة في الكونغو تلك الفظائع التي تقشعر منها الابدان ، ويكفي أن نذكر أنه في خلال حكم ليوبولد قتل ما يقرب من ثمانية مليون افريقي ٠٠ قتلهم التجار والاداريون الاوربيون الذين كانوا يبحثون عن العاج والمطاط ، ولقد كان الافريقي الذي يعجز عن احضار الكمية المطلوبة منه من المطاط او العاج للرجل الاوربي يتعرض للتشويه بقطع يده أو رجله ٠

والافريقي محروم من الوظائف الفنية والوظائف

ذات الدخل الكبير فى المجال الصناعى، وينكر البيض على الرجل الافريقى حقه فى المساواة الاقتصادية معهم ، تماما كما ينكرون عليه حقه فى المساواة السياسية ايضا .

وتضطر ظروف الحياة المعيشية الرجل الافريقى الى الخروج الى سوق العمل والى المناجم والحقول حيث يساق مع ابناء جلدته من السود كالسائمة داخل معسكرات العمل وحظائر تخصص لهم . ويحضر الرجل الابيض صاحب الصناعة او الفلاح الاوربى او سيدة المنزل الى هذه الحظائر والمعسكرات ليختاروا منهم من يشاءون لاستخدامهم فى المصانع او المنازل او الحقول . اما فى المدن فعلى الرغم من الحاجة الى أيديهم فانه لا يسمح لهم بالبقاء فيها . واذا قدر لأى انسان أن يزور اتحاد جنوب افريقيا ، أو روديسيا الجنوبية راعه ما يشاهده فى الحدائق العامة ومداخل المدن ومحطات السكك الحديدية والقطارات والسيارات العامة .. الخ ، حيث يرى فى هذه الاماكن لافتات كتب فيها « غير مسموح للافريقيين والكلاب »

ولقد خلقت سياسة الرجل الابيض فى افريقيا طائفتين من الناس هما :

طائفة حاكمة وأخرى محكومة ، كما خلقت فيها أيضا معسكرين متعاديين ، وهؤلاء الحاكمون يحملون الكراهية لمن يقاوم سلطتهم ، كما أن المحكومين يكرهون ـ بدورهم ـ طبقة الحاكمين ، ولذلك فان الصراع الذى يدور اليوم على أرض افريقيا ليس صراعا أساسه الاسود والابيض فقط ، بل هو صراع طبيعى بين سيد ومسود ، فلم تعد القضية منحصرة فى سواد وبياض، ولكنها تصميم من جانب الاوربيين فى الابقاء على سلطتهم فى افريقيا ، تقابلها رغبة عنيدة جادة من جانب الافريقيين فى تولى حكم بلادهم وطرد السلطان الأجنبى منها . ويمكن تلخيص الدوافع الاساسية التى خلقت القومية الافريقية المعاصرة فيما يلى :

انها رغبة الرجل الافريقى فى المساهمة الكاملة فى حكومة بلاده المركزية . ورغبته فى تحقيق العدالة الاقتصادية التى تعترف اعترافا كاملا بمبدأ تساوى الأجر عند تساوى العمل دون ما نظر أو اعتبار للون بشرته ، ورغبته فى أن يتمتع بالحقوق السياسية الكاملة داخل بلاده ، وكراهيته الشديدة لأن يعامل معاملة الرجل الاجنبى فى وطنه وكراهيته أيضا لأن يستغل كوسيلة لتحقيق أطماع الرجل الابيض ومآربه وكراهيته للقوانين السائدة التى تفرض عليه البقاء فى الوضع الدون .

هذه هى أهم الدوافع التى شكلت القومية الافريقية التى يحاربها الرجل الابيض اليوم فى داخل المناطق التى ما زال يسيطر عليها .

وعن دور التبشير فى خدمة الاستعمار يورد المؤلف حديثا لأحد مواطنى جنوب افريقيا ، يقول فيه :

« لقد أتى المبشر الى أرضنا ، وطلب منا أن نعبد الله معه ، وامرنا أن نغمض أعيننا زيادة فى الخشوع ففعلنا.. وعندما قلنا فى نهاية الصلاة آمين، وفتحنا أعيننا وجدنا الانجيل فى أيدينا ولكن أرضنا ضاعت منا »

وبعد أن يذكر الكتاب دور الحرب العالمية الثانية فى اذكاء الروح القومية وتدعيمها فى افريقيا يقول :

علينا أن نؤكد أن الحركة الوطنية الافريقية ليست الا مجهودا نبيلا تقوم به الشعوب الافريقية لكى تؤكد كرامتها الانسانية التى انكرتها عليها السلطات الاوربية التى تحتل افريقيا ، وهو مجهود نبيل حقا لانه يعمل على التخلص من الحكم الاجنبى الذى يضعهم دائما فى المرتبة الدون .

ولقد ظهرت الشخصية الافريقية بشكل واضح فى مختلف مجالات الحياة العامة ، ولم يعد الافريقى الاسود يعيش اليوم خادما للاله الابيض يأتمر بأمره فى كل صغيرة وكبيرة ، بل أصبحت النقابات والمنظمات السياسية والهيئات الاجتماعية افريقية، يرأسها افريقيون يعرفون تماما واجباتهم وحقوقهم. وقد مضى العهد الذى كان الافريقى يستعين فيه بمبشر أبيض يتوسط له لدى الادارة الاوربية لرفع الغبن الذى يصيبه ، وأصبح الرجل الافريقى يحس اليوم بالاستقلال والاعتماد على النفس اكثر من أى وقت مضى .

وبدأت تجتاح افريقيا اليوم موجة عارمة من التقدم العلمى السريع والتطور الحضارى المعاصر ، وأخذ الجيل الجديد من شباب افريقيا يؤكد وجود المعجزة فى أرض القارة المترامية الاطراف .

ولقد أصبح كل افريقى يؤمن اليوم بأن انتصار القومية الافريقية بمحتواها النضالى التقدمى انما هو انتصار للشخصية الانسانية وللكرامة الانسانية.

« تحسين عبد الحى »

البريد الأدبى



ومات « شيخ النقاد »

بقلم/طلعت ابو اليزيد الهابط

بالأمس الحزين . خرجت جموع الأدباء تشق طريقها الى المدافن والقبور لتسلم اليها الروح البريئة ، الروح التى عاشت فى كل فكر ، وعاصرت أدباء وحررت أمة من براثن التخلف طوال ربع قرن من الزمان .. انها روح الدكتور محمد مندور رحمة الله عليه .

والدكتور ليس بخاف على أحد ، انه كبير النقاد وشيخهم كما لقبه أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد وهو حقا كذلك .

فلقد عاد من باريس وفى جعبته كنوز المعرفة ، عاد ليلقن طلائع النقد أصوله ومقوماته ، وليحتل مكانه بين مشاهير الأدباء .

لقد سلط قلمه حول المبادىء والقيم الاجتماعية والسياسة وحارب الاستعمار بكل لسان جبار وقدم نفسه ليلة الثورة الى رجال الثورة دليل صدق عمله الوطنى الثورى . لقد قاد حركة النقد وحمل عبء آرائها على عاتقه ، وبذل النفس والنفيس ولم يبخل بمقالاته وآرائه للصحف والمجلات يتنقل بين صفحاتها متحدثا لبقا بارعا كأنه الطائر الفريد الذى يغرد فوق خميلة الازهار والورود .

كان لسانه مع قلمه يشكلان الخطر الأكبر فوق العادات الموروثة التى توارثها الأجيال بدون وعى وباللاوعى . قرأ بنهم واسع وهذه صفة الناقد وسماته ، ورغم جبروت العقاد استطاع الدكتور أن يخوض المعركة أمامه وفعلا صمد ، ولم يمنعه ذلك من أن يزوره فى منزله حينما علم بخبر مرضه ! فكم كان لذلك العمل الانسانى وقع فى نفس صاحبنا (العقاد) .

نعم : وألف نعم : انه « شيخ النقاد » وحقا من أعلام القرن العشرين لقد زرع شجرة فكبرت ونمت ولم يستطع أن يجنى ثمارها رغم قدرته ولكن تركها لغيره يجنى ثمارها الرضاب وذهب الى حيث الجنة الفيحاء .

لقد غادرنا مندور ولن تفارقنا ذكراه ، ولن تنزاح عن صدورنا غمامة مصابه فان كان القدر قد أسرع فى اختطافه ، فلسنا نملك الا أن نستسلم للقدر ورحم الله « شيخ النقاد » وأدخله فسيح جناته بما وهب وترك من مآثر حية ينبض بها التاريخ ويكتب لها أن تظل فى نفس كل أديب وكل انسان عرف قيمة الحياة ..

« ومات « شيخ النقاد » وسيظل أسطورة فى كل م وقلم » .

حول « القصة العربية القديمة »

حلمى محمد قاعود

يتناول الدكتور احمد كمال زكى على صفحات مجلة الرسالة سلسلة من أحاديثه عن القصة العربية « القديمة » ـ على حد تعبيره .

ويلاحظ أن هذه الأحاديث دراسة موجزة وسريعة لفن يعتبر من أهم الفنون التى تركها لنا السلف ، من العرب المسلمين .

غير انه ـ فى الدراسة الموجزة والسريعة ـ يجب الا تخلط الأمور ونهمل دقائقها ، بحجة الايجاز والسرعة .

ففى المقال أو الحديث الثانى المنشور فى العدد « ٩٦ » من الرسالة يقول الدكتور عن مقامات بديع الزمان الهمزانى «وأما بالنسبة لمقامات بديع الزمان ـ الذى ولد سنة ٣٥٨ هـ وعاش أربعين عاما فقط ـ

فالأمر فيها اسهل وأقل تعقيدا ، لان المتفق عليه انها قصص عامية كتبها عربى متعصب للعروبة ، وان يكن ثمة مستشرقون يرون انه استوحاها من الفارسية والسنسكريتية وبعض حكايات الكتاب المقدس .. » « وقد يكون تحول القصة عند بديع الزمان على ذلك النحو ضربا من الحرص على لغة العشيرة ، ولاسيما أن موضوعها .. « الكدية » مما يخلق تناقضا بين الشكل والموضوع ـ وقد يكون تجاوبا مع القصص العامى » ..

والمتامل فى هذه العبارات يرى أن الشك قد لابسه واختلط عليه الفهم والتحصيل .. فكيف لنا أن نفهم ان قصص بديع الزمان عامية .. ؟ ثم نفهم انها ضرب من الحرص على لغة العشيرة ؟ ؟

والمعروف أن قصص بديع الزمان باللغة العربية الفصحى وان استخدم فيها بعض الكلمات الدارجة فى عصره وزمانه .. ثم نحن لا ندرى اية عشيرة تلك التى يحافظ على لغتها .. وفى أى شىء ؟ لنفرض مثلا .. ان بديع الزمان كتب بعض مقاماته بالعامية فهل يصح لنا أن نحكم على مقاماته كلها بانها «عامية» اظن .. لا !!

وهل يفوت على الدكتور أن يحكم بوجود تناقض بين الشكل والموضوع .. لأن موضوع المقامات « الكدية » ولغتها لغة العشيرة ؟

وهل يفوت على الدكتور أن يحكم بتجاوب المقامات مع القصص العامى ؟ ونذكر أن القصص العامى يدخل تحت التراث الشعبى أو الأدب الشعبى .. وهو موضوع يبعد عن حديث الدكتور بعدا كبيرا !

ثم سؤال الى الدكتور .. هل لك فى أن تدلنا على المصادر التى تثبت الاتفاق على أن مقامات بديع الزمان قصص عامية ؟ ولماذا كان على بديع الزمان أن يستوحى مقاماته من الفارسية والسنسكريتية وبعض حكايات الكتاب المقدس ؟

ان واحدا كالدكتور احمد كمال زكى .. كان يجب عليه الا يعرض لهذه الرؤية التى يراها المستشرقون .. بدون ان يقف عندها ويعطيها حقها من النقد والتمحيص .. والملاحظ فى هذه الرؤية انها رؤية لا تعتمد على منطق ولا دليل .. فمقامات بديع الزمان .. لا تخرج عما نسميه فى أيامنا هذه « بالأدب الاجتماعى » ، وكل ما فى المقامات ينبىء عن امتصاصها للحياة فى ذلك العصر ، واشتقاقها من حياته الاجتماعية على الخصوص . ولست هنا بسبيل شرح العصر وما فيه من ظروف ثم المقارنة بما فى تلك المقامات من دلائل وعلامات تشير باصابعها الطويلة نحوه . فقد أعود الى هذا فى دراسة أوسع وأشمل ان شاء الله .

ومن الغرابة ان يقول الدكتور فى حديث اذاعى له بالبرنامج الثانى ما يفهم منه « أن القصاص العربى القديم كان يمشى فى الشوارع وتسير خلفه الصبية والأطفال ليجلس معهم ثم يقص عليهم أقاصيصه وحكاياته » .

وهنا .. يجب ان انبه ثانية لوجود فرق بين الأدب الفصيح والأدب الشعبى .. بين المقامات باسلوبها الفصيح ، وبين الراوى وهو يشد أوتار الربابة ويضرب عليها ثم يقول .. كان يا ما كان يا سادة يا كرام ... الخ .

ولعل الدكتور يتحفنا بالاجابة الشافية .

من كان بلا خطيئة !!

قصة بقلم عبد المعطي المسيري

عندما وضعنا الأقدام في مدينة الاسكندرية ، مال على صاحبي وقال : لا تنس ان اعصابنا قد اعياها طول التثني ، وانها تريد ان تثار لسنة ماضية ، وتدخر لسنة قادمة .

وكنت لا اقل عنه ميلا الى التمرد والخروج على الاوضاع ولذلك اجبته : اطمئن ايها الرفيق ، فسنجعل من يومنا هـذا « اناء » نضع فيه من كل متعة شيئا ، وخليق بهذا الخليط ان يجعل النشوة تسرى في كياننا ...

وانطلقنا .. طفقنا نقطف المتع ونضعها في « الاناء » . كنا نعربد في مواطن العقل . ونتحشم في اماكن اللهو !! ساخرين من ذلك الضرر الذى انذر به الشاعر القديم : « ووضع الندى في موضع السيف بالعلا » ...

وادركنا المساء ، فالفينا « الاناء » يكاد يفيض بما يضطرب في جوفه ، ولكنا ـ لفـرط ما عنيت به رءوسنا ـ لم ندر الا واقدامنا تتزلق ، فتدلف بنا الى بيت تسكنه احدى اللواتى لسن من العذارى ولا من الامهات ...

اما من حيث الجمال ، فاستطيع ان اقول انها كانت على جانب لا باس به ، ولكن الذى هزنى شىء يشبه الاسى كان ينبعث من نظراتها فيكسب عينيها فتنة تطغى على كل ما لها من مميزات ، حتى ليخيل للمرء ان كل ما تملكه قد تركز في تينك العينين .

ولحت صاحبتنا ما نحن عليه . فلم تعمد الى حشد ما تتقنه من صنوف الاغراء ، بل ضغطت « الاناء » قليلا وتربعت على حافته تعالج العبث بالبقية الباقية من عقلينا ...

ولكن ما بال صاحبى يخلط هنا ايضـا ، فيضع السيف في موضع الندى ؟

لقد انحرف بنا عن طريق السمر المألوف ، الى الكلام عن الاقدار وعبثها ، والحياة ومرارتها ! ثم ما باله يقذفها بوابل من هـذه الاسئلة :

« هل كنت تتوقعين حضورنا ؟

« كيف يكون شعورك ازاء القادمين ، ومنهم الاسمر والاحمر ، وفيهم اللطيف والسخيف ، والطويل والقصير ؟

« انت تظهرين الحب وتبعثين قبـلاتك وضحكاتك هنـا ، وهاهنا ، لهذا ولذاك ، لاى شخص ـ ولكن قلبك ، اين موضعه؟ ولمن يخفق ؟

على هذا النحو ، حتى افلت الزمام من « غادتنا » فصدفت عن الدور الذى اختاره القدر لها ، وانطلقت ـ تحت تاثير عواطف كامنة ـ تسرد علينا تاريخ حياتها ...

وهكذا ، جئنا نغرق همومنا في بحرها ، فصبت هي اساها في نفسينا !!

❊❊

هى لا تعرف كيف قضت طفولتها ، ولكنها تذكر انها انتزعت من بين اترابها في الحارة لتعمل كخادمة ، فظلت تنتقل من بيت الى آخر حتى تجاوزت منتصف الحلقة الثانية بقليـل ، التحقت بخدمة « احد البكوات » من العاطلين بالوراثة ! وهنـا تبدا المأساة .

سيدها (البك) تخطى الخمسين ، ولكنه لم يركن بعد الى ما تفرضـه هذه السن ، بل يبدو كانه في سباق مع الشيطان ، فهو يصحو ليسكر ، ويسكر ليصحو ، حتى لا يرى الا مخمورا ! ويفرغ من المقامرة في الخارج لينصب ميدانها في البيت ، حيث اعد لذلك جناحا خاصا يلتقى فيه بمعارفه فيلعبون ويعبثون .

وسيدتها شابة في الثلاثين من عمرها ، يشيع المرح في اعطافها وحركاتها ليست بالجميلة ولا بالدميمة ولكن لها من خفتهـا ورشاقتها ، ما تكفل بسد ما ينقصها من جمال ...

وقد فطنت (صاحبتنا) سريعا لسر تغافل « الست الزوجة » عن اعمال « البك » فلها ملذاتها الخاصة التى تسـتغرق كل تفكيرها ، والتى تود من اجلها الا يترك (البك) عربدته !

هى مولعة باحد اصدقاء زوجها ، وكثيرا ما ترك الصـديق اللعب ، متذرعا بمختلف الاعذار ، ليحظى بلقاء الست ! .

وفي البيت ايضا شاب في العشرين ـ ابن البك من زوجته الاولى ـ غرفته اشبه بالحانة ، وسريره لا يخلو يوما من ضيف!

و (صاحبتنا) تعرف هذا كله ، فهى التى تجهز جناح سيدها ، وتشرف على اعـداد ما يلزم لرواده ، وهى الى ذلك كاتمة سر سيدتها ، وهمزة الوصل بينها وبين العشيق ، ثم هى ايضـا مطالبة بخدمة الشاب والسهر على راحته !

نعم ان في البيت الكثير من الخدم ، ولكن ذنبها ان الجميع يستظرفونها .. وايضا يستصغرونها !

❊❊

وذات مساء والمائدة عامرة ، والست لاهية ، كان الشـاب بمفرده ينتظر ! وها هو الليل ينتصف .. والخمر تعصف براسه .. ولكنه لا يزال ينتظر ! وطال انتظاره ، ولم يجد الا «زينب» رائحة غادية ، تلبى هذا الطلب ، وتجيب هذا النداء .. فناداها ولأول مرة يتودد اليها ، فيختصر اسمها ويدعوها « زوزو » .

انها لا تستطيع تقدير شعورها اذ ذاك ، صحيح انها كانت ماخوذة بسحر ما يضطرب في الصدر ، وصحيح انها كانت تحن الى ذراع يضمها ، وفم يداعبها ويقبلها ، ولكن .. لكن غير سيدها هذا !

لقد قبلها وضمها ، ثم قبلها وضمها ، ثم يدق الجرس فتفلت من بين ذراعيه وبدنها يغلي ...

ولكنها لا تعود الى غرفته بل تمرق نحو غرفتها ـ وهى ترتعد ، ولكن ها هو الشاب يقتحم حصنها ، ليصل ما انقطع ...

ران السكون على البيت وعلى من فيه ، الا (صاحبتنا) التى

احتشدت بغرفتها «الاشباح» تصرخ وتعول تارة ، وترقص وتعربد تارة اخرى ..

حاولت النوم ، ولكن انى لها ان تنام ؟! فاغمضت عينيها لتقى نفسها شر تلك الاشباح ، ولكنها وجدت وهى مغمضة العينين ، اسهما ذات الوان مختلفة تومض وتختفى ، فوضعت يديها على وجهها فسمعت طنينا فى اذنيها ، واحست بعاصفة فى نفسها ، واتون فى راسها .

لم ينقذها الا سنة خفيفة ، ولكنها تنبهت على اثرها مذعورة ، فقد حلمت خلالها كانها جاثية عند اقدام الشاب ، وكان يجـز شعرها ، واخيرا يخلع عنها ملابسها ويلقى بها من النافذة !

وبعد عذاب شديد لمحت خيوط الفجر تنساب خلال النافذة ، فغادرت الغرفة فى سرعة وذعر ، وما صافحت وجهها نسمةالصبح حتى شهقت تتلقف انفاسها ...

وعادت الى الغرفة ثانية لتجمع امتعتها فقـد اعتزمت امرا ، ولكنها بمجرد أن القت نظرها على فراشها رات الاشباح تصرخ وترقص ، والنجوم تومض وتختفى ، والشاب يجز شـعرها ، فحولت وجهها .. ولاذت بالفرار ...

وبذلك تسدل الستار على الفصل الاول من الماساة .

❊❊❊

فاذا كان الفصل الثانى ، فصاحبتنا ، قد اكتمل نضجهاوبرزت مميزات انوثتها ولكنها ما تزال تخدم .

بيد انه ما من بيت دخلته الا ووجدت فيه من يراودها عن نفسها ، فاذا امنت هذا الشر ، لم تامن شر الغيرة التى تختق سيداتها !

ولكن ها هى المقادير تهادنها ، فقد هام بها شاب « كواء » ثم ها هو ذا يسرع فيعقد عليها ، فتظن انها قد بلغت شاطئ«الهدوء والسلام .

غير ان الزوج لم يكن ماخوذا بجمالها ـ كما توهمت ـ وانما يريد ان يستثمره .. يريد أن يجيب رغبته ، لم يملأ ايضا.. معدته .. ولذلك ودع مهنته ، وراح يسوق لها الرجال !

فى هذه الفترة ، ترى ، صاحبتنا ، الحيـاة على حقيقتها ، فيبدو لها العالم ملطخا بالأوحال . فهذا الرجل كانت تخدم فى بيته وهى صغيرة وكان يتظاهر بالتقى والورع ، ولكنه ينقلب ماجنا فاجرا الى حد بعيد ..

وذاك الرجل الآخر كثيرا ما تردد على بيت احد مخدوميها فكان حديثهما يدور عن الدين والاخلاق ، وكان يصدر عن نفس نظنها ، الفتاة الصغيرة ، كريمة نبيـلة ، ولكنها تراها الآن ، المراة المجربة ، سفيهة منحطة ...

ثم ها هى المقادير تداعبها ، فقد داهمها البوليس ، واقتادها الى التحقيق ، ولكنها بفضل تغاضى الزوج عن كرامته ، تنجو من العقاب ، ولكنها تحول الى المستشفى .

وينتهى بذلك الفصل الثانى ...

❊❊❊

فاذا كان الفصل الثالث ، فهى راقدة بجوار احدى «المومسات» ترمق ما يغدقه عليها معارفها من هدايا ، وترى ما يحوطها من عناية ، ويتصل بينهما الكلام ، فتكشف كل واحـدة منهما عن حياتها للاخرى وينتهى الامر ـ بان الحيـاة الصريحة ـ امن واجدى ..!

ولكن الزوج !

فتضحك (البغى) وتتكفل بالامر ...

وتسير الامور على النحو الذى رسمته ، جارتها ، .

فالزوج قد قبل الطلاق بعد ان قبض ثمنه و «صاحبتنا» قد بيعت فى سوق البغايا بثمن اقر عين جارتها ، وعاد عليها بالربح الوفير .

وفى هذه الفترة ، ترى (صاحبتنـــا) لونا اخر من الوان الشقاء . فصاحبة البيت امراة شرسة الطباع ، حادة المزاج ، تفرض على كل واحدة مبلغا معينا ، وترسم لكل واحـدة طريقا خاصا ، والويل للتى تحيد عن الطريق ، او تخرج على النظام ، فعقابها ان تقضى ليلتها مع واحـد من ثلاثة ، جمعوا بين دمامة الخلقة ، وسوء العشرة ، وطول اليد ، وسلاطة اللسان ...

وفى هذا البيت ، مقفل ، من نوع عجيب ، رجل ترى يطلقون عليه لقب (السلطان) وهو صديق السيدة صاحبة البيت ، ثم هو الى ذلك معروف بالبذخ والاسراف .

لهذا (السلطان) ميزة خصته بها ، السيدة ، تلك هى ان يقضى الليلة الاولى مع القادمة الجديدة نظير خمسة جنيهات !

وقد استظرف (البك) صاحبتنا فاغدق عليهـا من كرمه ، وشملها بعطفه فاستطاع ان يدفع عنها شر (السـيدة) بعض الشئ !

ولكن ، صاحبتنا ، رغم ذلك تضيق بالدار ونظمها ، وسيدتها و (السلطان) ايضا ...

تضيق بهؤلاء السكارى وصخبهم ، وباولئك الطغام وقذارتهم فاذا ارتسم البرم على وجهها ، راحت (السيدة) تهمس فى اذنها تعلمها ، اسرار الحياة ، فالاقدام القـذرة ينبغى ان تغسلها ، والنفس الثائرة يجب ان تسامرها ، واللطمة يكون جوابهـا ضحكة ، والسب يقابل بالتبسم !

تضيق (صاحبتنا) بذلك اللون .. فتفر ...

❊❊❊

فاذا كان الفصل الرابع ، فهى حيث تجدها الآن !

نفاية انسـان ، حطـام امراة ، تعيش بلا امل ولا غاية ، لا تاسف على ماض ، ولا تاسو على حاضر ، تعتقد بانها ليست اشر من غيرها ، فالنـاس جميعا يستوون فى الشر ، والفارق ان بعضهم يعلنه والآخر يخفيه ..

ثم هى على ثقة بانها لو عادت الى الحياة من جديد لما استطاعت النجاة بنفسها من الجحيم الذى تردت فيه ، وكيف كانت تستطيع مقاومة الدوافع والمؤثرات التى كانت تلح عليها ، وتحيط بها ؟

شئ واحد يرد ضميرها الى الرقاد اذا استيقظ ، ويحمى روحها من الظلمة اذا اكتنفتها : ذلك هو ما لاقته من الناس ، ثم تلك الحكمة الكريمة التى نقشتها على سوارها :

« من كان بلا خطيئة فليرم بحجر » .

« عبد المعطى المسيرى »



الثقافة
أسبوعية
تصدر كل ثلاثاء
الرسالة
أسبوعية
تصدر كل خميس
المجلة
شهرية
تصدر يوم (٥)
الشعر
شهرية
تصدر يوم (١٠)
القصة
شهرية
تصدر يوم (١٥)
مجلات
الثقافة والإرشاد القومي